د. رجاء مكي طبارة

دراسات نظرية وعملية لتقنيات وميادين

في

علم النفس الاجتماعي

بيسان

دراسات نظرية وعملية لتقنيات وميادين

في

علم النفس الاجتماعي

■ دراسات نظرية وعملية لتقنيات وميادين في علم النفس الاجتماعي
■ تأليف: د. رجاء مكي طبارة.
■ الطبعة الأولى: كانون الثاني 2000 م.

■ الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام
■ ص. ب 13-5261 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 351291 ـ فاكس 961-1-747089

مقدمة

يدرس علم النفس السلوك الانساني بكافة موضوعاته كالإحساس والإدراك والتمييز وسواها. فمن دراسة الشخصية يمكن دراسة جميع موضوعات علم النفس.

إن علم النفس هو علم حديث ينمو سريعاً وتتعدد نظرياته ومدارسه، ومع تطور احتياجات العصر زادت الحاجة لتقديم مادة علم النفس السهلة المبسطة الواضحة للجماهير التي زاد اهتمامها بالمعلومات النفسية.

تتعدد مجالات الاختصاص بعلم النفس؛ وتتشابك مادة علم النفس مع غيرها من الميادين نظراً للتعقيد في دراسة السلوك الإنساني. من ميادينه: علم النفس العام – علم النفس التجريبي – علم النفس الفيزيولوجي – علم نفس الاتصال والاعلام – علم نفس الاضطرابات النفسية والجسدية– علم النفس التطوري – علم النفس المرضي– علم النفس التربوي– علم نفس الطفل – علم النفس الصناعي

– علم النفس العسكري (وهو علم يعتمد على الابحاث النظرية والتجريبية وما لدراسة المؤسسة العسكرية كتنظيم اجتماعي مستقلّ كما يدرس العلاقات الاجتماعية الداخلية والعلاقات الاجتماعية الخارجية كالجماعة العسكرية – المهنية العسكرية – التنظيم العسكري- العلاقات المدنية العسكرية – سوسيولوجيا الحرب – قوات حفظ السلام الخ ...)- وعلم النفس الاجتماعي وهو ميدان اساسي من ميادين البحوث النفسية لأن دراسة سلوك الفرد لا بدّ ان تنبع من دراسة المجتمع وتفاعلات الفرد داخله. يتناول اذاً علم النفس الاجتماعي بالدراسة: سلوك الفرد ككل في المجتمع وهو يهتم بكل مظهر من مظاهر هذا السلوك، كما أنه يعالج المجال الذي يدور فيه السلوك، اي المجال الاجتماعي؛ ونعني الافراد والجماعات بمواقفهم وبالأثر الذي تكوّن من هذه المواقف ونتيجة عناصر الثقافة الاجتماعية.

من اهم الموضوعات التي يدرسها "علم الفرد في المجتمع": الثقافة – الاتجاهات النفسية والرأي- السلوك الجنسي – الجماعة – الاتصال – القيم والمعايير – الادوار الخ ...

وهو يتقاطع مع الكثير من العلوم الاخرى: كالانتروبولوجيا والتاريخ والتربية وغيرها.

إن علم النفس الاجتماعي اذاً ، هو علم يتناول سلوك الفرد بالوصف والتجريب والتحليل اثناء تفاعل هذا الفرد مع الآخرين واستجابتهم له استجابة ايجابية او سلبية ، سواء كانوا فرادى ام مجتمعين.

لقد عرف Gruchfield و Krech سنة ١٩٤٨ علم النفس الاجتماعي بأنه العلم الذي يدرس سلوك الفرد في المجتمع. وعرفه Shér-if Mozapher و Chérif انه الدراسة العلمية لخبرات الافراد وسلوكهم من ناحية المواقف الاجتماعية ذات التأثير. على ان المواقف الاجتماعية ذات التأثير تتكون من الناس سواء كانوا جماعات او افراداً.

هدف علم النفس الاجتماعي هو الكشف عن العوامل التي بتأثيرها يتغير سلوك الفرد في استجاباته للمتغيرات الاجتماعية (عوامل فسيولوجية ام اجتماعية ام سيكولوجية؟). ومجالات هذا العلم متعددة، نعد منها سريعا: التنشئة الاجتماعية – الاسس النفسية للقيادة وغيرها...

وترى مجلة الملخّصات السيكولوجية الاميركية ان مجالاته (اي علم النفس الاجتماعي) سبعة من اهمها: الاتصال الذي يتناول بشكل مباشر الاسس النفسية واللغة ويدخل في مضمار العلاقات الانسانية وكيفية الولوج الى الجماعة ومن ثمّ الى السلطة والقيادة.

ونحن في عالمنا المعاصر، احوج لعلم النفس الاجتماعي اكثر من اي وقت مضى فالحرب وتأثيراتها؛ الحداثة والعولمة وامور التراث كلها من المواضيع الحياتية اليومية التي تدخل الينا بدون استئذان ولا تحمينا من المأزم والصراع وفي محاولات دؤوبة للهاث وراء الحضارة سواء ملكناها ام كنا نملكها علّنا نفتش عن سعادة معها او بها ؛ فالحضارة برأي "سيغموند فرويد" يمكن ان تؤدي الى البؤُس ما لم تنظم العلاقات الاجتماعية وما لم يسيطر الحب بمفهومه الانساني الذي يشكل النموذج الاول لكل سعادة.

كوننا نتوجه الى طلابنا الاعزاء فإننا سنختار لهم بعضاً من كل لا نتمكن من عرضه بإسهاب ، نماذج وافكاراً وتقنياتٍ اخترناها بعد خبرة تعليم وتدريب ربما تساعدهم في شق طريقهم نحو المعرفة في علم النفس الاجتماعي.

وبالنسبة لنا فإننا نركز على تقنية الملاحظة التي هي اكثر من تقنية او طريقة لتجميع المعطيات. إنها مسعى لمعالجة المعارف، يفتح الطريق امام مفهوم جديد للوصف في الاتنولوجيا وفي العلوم الانسانية والاجتماعية. وهي تهدف لتحاشي القطيعة مع العلوم الأخرى والتي وقع بها الكثير من علماء الاجتماع.

وطالما تطبق هذه الملاحظة في علوم الطبيعة وكافة عمليات البحث الخاصة بإعادة تنظيم معنى العلوم الاجتماعية واهمها علم النفس الاجتماعي فإن الملاحظة تبدو الطريقة الوحيدة الملائمة (وتُطرح مسائل فارق الحضارة، اللغة وتميز الملاحظة عن الملاحَظْ)، إذ أنها تضبط مشروع الفعل projet d'action، وهي طريقة مختارة لدراسة دينامية السلوك الحيواني والانساني في معضلته، وتستخدم ايضاً في كافة ميادين دراسة التطور الخاصة بالعلوم الانسانية والاجتماعية، من هنا تأتي اهميتها وتنوع استخدامها.

الفصل الأول

الاتصال

١- تحديد معنى الإتصال

الإتصال هو اساس الحياة الاجتماعية، هذا ما اكده "هوغ" ١٩٨٥، فقد مر زمن كانت الاتصالات فيه مقتصرة على الايماءات والتعبير اللفظي، ومع تعاقب العصور تزود البشر بلغات وبوسائل اتصال تسمح لهم بتسريع انتقال المراسيل، وهكذا توصلت مثلاً الجماعات البدائية الى استخدام قرع الطبول او الدخان لتتواصل فيما بينها.

إن عصرنا هو عصر الاتصال سواء كان اتصالاً مباشراً (كلامياً عبر اللغة) او اتصالاً عبر وسيط الا وهو وسيلة الاتصال الجماعية (السمعية، البصرية او السمعية البصرية)، خاصة وان مجتمعاتنا تتنوع فيها الميزات والمعلومات التي تنتشر بسرعة وبواسطة ادوات دقيقة وحاليا رهيفة ان شئت القول (بدءاً من التلفاز وصولاً الى الاقمار الصناعية وشبكات الانترنت)، اذاً فإن الميادين المختلفة المرتبطة بالاتصال تتطور تطوراً سريعاً وتنمو بشكل متواصل خاصة بعد نشوء المعلوماتية التي تتعقد وتتنوع اساليبها والتي تدخل عالم الاعمال والنقابات والعلوم والتربية و عالم الحركات النسائية وغيرها من الحركات المطلبية الاخرى.

الاتصال اذاً هو اساس الحياة الاجتماعية لان الفرد غير معزول وينتمي الى جماعة دائمة. ان فكر J.J.Rousseau الذي يعتقد ان الانسان يستطيع متروكاً لذاته ان ينمو ويتكون بصورة افضل، اصبحت فكرة غير قابلة للاجماع، فظاهرة الاتصال ذات حضور دائم اياً كانت الوضعية الوجودية.

ظهرت كلمتا اتصل واتصال (communiquer- Communication) في المنتصف الثاني من القرن ١٤ وتدلان على "الاشتراك"، بعبارة قريبة من اللاتينية، الا اننا وفي هذا العصر- كما سبق واشرنا- بدأ مفهوم التواصل يدل على "النقل" او "الابلاغ" وتعمق مع ظهور عبارة وسائل الاتصال (السينما- الصحافة – الخ...) . ولم تبرز كلمة إتصال في المفردات العلمية الا منذ فترة قريبة من خلال الفعل الارتدادي او الارتجاع Feed back .. وكانت نظرية "شانون" الذي كان يعمل لصالح شركة Bell-téléphone بمثابة صياغة نظرية حول النقل والابلاغ لتحسين مردودية المبراق télégramme وكانت تنحو الى تغليب معنى النقل الابلاغي Transmission وقد تضمن النموذج الذي اقترحه خمسة عناصر او مكونات :

١- مصدر الاعلام الذي ينتج الرسالة.

٢- المرسل الذي يحول هذه الرسالة الى اشارات.

٣- القناة المستخدمة لنقل الاشارة او مكان النقل.

٤- اللاقط الذي يعيد بناء الرسالة / المكان المقصود

٥- المرسل اليه/ والغاية من الرسالة/

ووفقاً لذلك يعتبر اي اتصال بمثابة وصل او تواصل بين شخصين الاول يقوم بالارسال وهو المرسل كونه يباشر فعل الاتصال وترميز المعلومات على اساس الهدف الذي يريد ادراكه ويبلّغ رسالته بأي وسيلة الى المستقبل او المرسَل اليه الذي يفك رموز المعلومات فينتزع منها دلالة لا تنفصل عن نية المرسل مما يتصورها المرسل اليه.

كلاهما، المرسل والمرسل اليه معنيان هنا بوضعية مشتركة ، وهما امام دلالات يحاولان التعبير عنها برموز واشارات تكون مفهومة لكليهما...الا ان لكل منهما شخصيته وتاريخه ومصالحه وموقعه او مواقعه وادواره وقيمه ، فالعلاقة الوظيفية تختلف بين المرسل والمرسل اليه (رئيس ومرؤوس مثلاً رئيس نقابة وعامل)، كذلك البيئة الاجتماعية التي تحدد اتجاهات الفرد (مستواه التعليمي- ووضعية المرأة في عملها مقارنة مع الرجل الخ...).

نحن هنا نسعى الى ايضاح ظاهرة الاتصال بين الاشخاص (وهي في علم النفس وضعية تقابل عيادية: اللقاء بين الشخصين تقترب من الوضعية بين المحلل النفساني والصابر او المريض).

ان الكلام ، كلام الرسالة المحكية يحمل معنى التواصل الزماني ويتضمّن ٣ مراحل اساسية: ما قبل البث، البث، ما بعد البث.

يبدأ هذا التواصل بالتحتية الى ان تصبح اوالية معقدة ودائرية فيها بث واستقبال معاً وتقوم على اساس التفاعل ويجب ان ترتكز على قاعدة تؤدي الى توازن الاتصال واستقراره، (مراعاة العناصر

الاجتماعية والنفسية: المكان- البيئة- الصوت والحركات: كل ذلك له دلالة وتأثير على التلقي وعلى الرسالة وقبولها...) واحاطة المتصلين ببعضهم البعض.. ولا ننسى هنا ما يخفي الاتصال بالآخرين من اسقاط[1]، لانه عند الاتصال بالآخر فاننا نسقط هويتنا الذاتية وافكارنا عليه، وهذا يأتي في صلب العلاقة بين الرئيس والمرؤوس... وهنا لا بد من اتباع قواعد فن ادارة الاعمال ، لانه عندما يعلو الفرد ويكبر في المؤسسة لا يضمحل ما كان قد عقده من صلات بل انه يظل مطبوعاً في متن المؤسسة حتى بعد ان تنقطع الاتصالات المنتظمة بين بعض الافراد.

٢ - المؤسسة والاتصال

التعرض لمفهوم "المؤسسة" يدفعنا لتحديدها، فهي المجال الاكبر الذي يسمح بالاتصال بين الافراد وهي ايضاً المجموعة التي تحمل طابعاً بنيوياً ادارياً.

ان المؤسسة- من زاوية نفس- اجتماعية وايضاً ادارية – تدل على عديد من المجموعات او التجمعات (المنشأة – الشركة- المصلحة العامة). إنها نتائج فكرة تنبثق من الحاجات التي تتطلب الاشباع[1]

١ ـ الاسقاط: هو عملية لفظ المشاعر والرغبات والانفعال ـ غالباً ما تكون (دميمة) ـ من الوعي ونعت الآخر بها، وبالتالي فهي رفض أن تكون في ذاتنا مع انها موجودة فينا لكننا لا نعترف بها ونلفت النظر الى أن الشخص يدرك عالمه المحيط من خلال اهتماماته ورغباته (رجل الاعمال مثلاً يميل إلى ادراك المواضيع من خلال عمليتي الربح والخسارة).

حاجات الذات وحاجات الآخرين. للمؤسسة صيغة قانونية، ولها اهداف (اهداف المؤسسات النقابية مثلاً) وشرعية اشتراعات وقرارات ونشاطات وادارات، يجب ان يقسم العمل داخلها وان تتوحد القيادة والادارة والبنية والقرار كي تبتعد عن التفسخ والهرم وكي تقترب من الانتظام والتحديد والتراتبية.

ان تقسيم العمل واناطة المسؤوليات (من يعمل ماذا، ومن يتفاعل مع من ؟) استناداً الى مفهومي الموقع والدور، يسهّل عملية القيادة (والقيادة امر بديهي في اي عمل)، بحيث ان القائد يخلق نتيجة ارتباط حاجات مجموعة من الناس مع متطلبات وضعية في محاولة من قبل الجماعة للقيام بعمل ما. وللقائد وظائفية معينة: هي تفهم وتحليل عبر علاقاته الدينامية التابعة له، خاصة وان الحاجات يتم تلبية بعضها عبر علاقات مع الآخر.

٣ - الموقع والدور

هما مفهومان جوهريان لفهم تصرفات الفرد خاصة في البنية التنظيمية للمؤسسة، من خلال موقع الفرد ودوره في التنظيم المؤسسي (اعضاء وقياديين). ان الموقع هو مرتبة في بنية الجماعة وفي احوالها. ويمكن بواسطة التدريب او بقدرة الشخص نفسه ان يتغير موقعه. ولكل موقع دور، والدور هو الوجه الدينامي من البنية الاجتماعية، انه النشاط

---

١ ـ عرّفها البعض على أنها ثمرة أوالية ابداعية.

الذي يقوم به الشخص وفق الموقع الذي يحتله في الجماعة او في مخطط المؤسسة التنظيمي.

ويمكن لصاحب الموقع نفسه ان يتخذ ادواراً عديدة اخرى الى جانب دوره الرئيسي، وعليها (هذه الادوار) الاّ تكون متنافرة او متنازعة كما يقول (Hogue)"هوغ" الذي صاغ نموذجاً يفيد في فهم كيفية تعلّم الفرد الاضطلاع بالأدوار التي تتفرع عن الموقع الذي يحتلّه في جماعة او مؤسسة معينة. ان العلاقة متبادلة بين الفرد والمؤسسة وهي ليست خارجة عن مكونات نشاطها الاجتماعي (القيم والمعايير والتنظيم والوسائل).

٤ - معيقات الاتصال

هناك عقبات كثيرة تعيق الاتصال، من المستحسن وعيها لضبط التبادل والتواصل مع الآخرين وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام: معيقات دلالية- معيقات فردية - معيقات مؤسسية.

- تخص الاولى الالتباس في الكلام وتضارب معاني اللفظ وعدم الفهم او عدم المعرفة والمغايرة الثقافية من العوامل التي يمكن ان تتشابك لتجعل التبادل بين شخصين امراً صعباً. مثلاً: على رب العمل الذي يعلم مستخدميه بوجوب حضورهم الى المصنع او المكتب عند التاسعة تماماً ان يجهد ليعرفوا جميعاً ماذا يريد منهم. لذلك ان مستخدماً جديداً ربما اعتاد على رب عمل سابق كان يتساهل بربع ساعة غياب رغم لجوئه الى مثل هذا الاعلام، قد يظن بسهولة انه اذا

حضر الى المكتب الساعة التاسعة والربع يرضي رب عمله الجديد، فيما هو في واقع الامر لا يرضيه[1].

– للثانية علاقة بمستوى الفرد وطبيعة الرؤية نفسها وفي قدرته الادراكية، وربما كان هناك انتقائية ما، فنحن ندرك ما نحتاج الى ادراكه او ما نتوقع ادراكه، انه حقل ادراكي يتأثر بعوامل مثل العمر والتربية والثقافة والجماعة التي ينتمي اليها الفرد، والاطر الاحساسية وسوء التأويل وحالة الحضور النفسي التي قد تؤثر في مجرى الاتصال. مثلاً ، اذا ما شعر شخص بانفعال عميق يصعب عليه الاستماع الى الآخر بصفته محاوراً، وقد يضيف الى رسالته المزيد من الاعوجاج، ويمكن ان تؤدي هذه الوضعية الى احداث توتر اثناء الاتصال، ومن ثم الى سوء فهم عمق جزئي او شامل. وغالباً ما يقود تعدد سبل الاتصال الى ابهام الرسالة، مثلاً تتضارب النبرة والحركة ووصفة القامة احياناً مع مضمون الرسالة المحكية، مما يؤدي الى اتصال مبهم يترك المحاور في ازدواجية المعنى[2].

– اما الثالثة فقد تنشأ احياناً اثناء الاتصالات (تسليم رسالة غير مكتملة ظناً منا ان المرسل اليه على علم بالقضية التي نتناولها) [3].

٥- كيف نتوصل الى اتصال فعّال

من الضروري وخلال عملية الاتصال والتواصل بين الافراد الذين يُتعامل معهم خاصة في التواصل المؤسساتي حصر الرسائل والطلبات

١، ٢، ٣ ـ ج. هوغ: الجماعة ـ السلطة والاتصال ـ ترجمة نظير جاهل مجد ـ بيروت ١٩٩١ ـ ص ١٣٥.

بحدّها الادنى، ولا بد ان يكون اي طلب دقيقاً، وواضحاً وموجزاً، وعندما نصدر امراً او نطلب طلباً ما، علينا اللجوء الى الصيغ غير الشخصية. -

١- يمكن اعتماد تقنيتي المقابلة والملاحظة - المعمول بهما في ميادين علم النفس الاجتماعي، خاصة وان الاولى هي تقنية مشتركة تطبق في مهن مختلفة ونخص بالذكرالعمل النقابي الذي لا بد من ان يقوم على المقابلة التي حددها Maisonneuve على انها وضعية تظهر خلالها التفاعلات الشفاهية بين شخصين في علاقة مباشرة مع هدف موضوع منذ البدء . ويجب ان يتم هذا التفاعل على اساس الاتصال او التفهم الداخلي والخارجي للشخص.

ان المقابلة هي اتصال مباشر نحتاج اليه للدخول في علاقة مع الآخر مركزين على اهمية الاصغاء والملاحظة الايمائية والجسدية وما تحمله نبرة الصوت من دلالات.

واهمية هذه التقنية هي في فسح المجال امام الآخر في التوسع والدخول في التفاصيل التي يريدها، لتسهيل التعبير عنده وليس لاعاقته. لذا يجب الابتعاد عن التأويل والتقييم والحكم وحتى القرار الافرادي (القرار يجب ان يكون جماعياً وليس فردياً) .

(الدعم- في حال وجد - يجب الا يؤثر على افكار الآخر وتطلعاته). اما التوجيه والارشاد فهما من المواقف التي تسهل الاتصال مع الشخص الآخر، وفي حال تبنّينا مشاعره (للآخر المستجوب) فيجب

اعادتها اليه شفهياً بأمانة وبكثير من الاهتمام والانتباه، لكن مع الابقاء على مسافة وسطية تحمي من اخطار التماهي[1]والاسقاط .

واما الملاحظة في هذا المجال، فهي تقنية وصفية يعمل حالياً على ان تكون تحليلية تدرس السلوك الانساني والحيواني، في خدمة اهداف متعددة لمعرفة وفهم المحيط والاحداث حيث تدور.

وتساهم الملاحظة ـ في اطار البحث العلمي او العمل الاداري والنقابي والنسائي ايضاً – في معرفة مجموعة العمليات السيكولوجية واعادة تنظيم السلوك المهني ويمكن ان تبنى على اساس الاختبارات والاستمارات وغالباً ما تتعلق بظروف وشروط سير العمل (وضعية -وقت- مكان- علاقة الخ....)

والمطلوب هو ضبط عملية الدخول مع الآخر(لانه دخول متصاعد) مع التركيز على وظائف محددة تساعدنا على معرفة تأقلم الشخص مع محيطه المهني والاجتماعي من خلال رصد حركاته ومواقفه وسلوكه.

ان الملاحظة كتقنية، (وسنتعرض لها في الفصل اللاحق) تساعد على استشراف منطق الشخص وهو في وضعية العمل او خلال انجازه الوظائف المتعددة .

٢- الاستناد الى موضوعية طلب شيء معين من شخص معين.

ودرس مستويات التعبير عنه:

---

١ ـ التماهي: عملية نفسية يتماثل الشخص صفة شخص آخر فيتحول جزئياً أو كلياً على مثال هذا الشخص. نوع من التعاطف القوى بين المرسل والمرسل إليه.

التعبير الحركي المادي- التعبير العقلاني- التعبير العاطفي الانفعالي وهي كلها تعابير رمزية تقودنا الى تلمس وضعية سلوك الآخر.

٣- علينا تكييف مستوى لغتنا بما يريح المستقبل ولا يجعله يصطدم بتعبير شائك .

كما يجب التدرج معه من العام الى الخاص (لان الدخول في العام اسهل من الدخول في الخاص اول المطاف)، مع مراعاة الفروقات الوضعية للمهنة) (الادوار والموقع).

٤- قياس الجهاز النفسي الفردي ومعرفة ميول الآخر (عمر اختبارات او أسئلة بسيطة)، كما ان قياس الجهاز النفسي الجماعي وقياس عمليات الانجذاب والتنازع والكره بين افراد المجموعة امر مهم ومساعد (ننطلق هنا من قواعد واسس دينامية العصبة)، يسمح بالتعرف عن كثب على المجموعة وعلى الافراد على السواء.

٥- تحديد هدف وفحوى الرسالة في عملية الاتصال (لمعرفة ماذا تريد من الآخر وليس فقط بهدف التقصي) ، وهنا دور التراتبية مهمّ في الموقع (دور الرئيس وضرورة الثقة بالنفس والاستقامة والشعور بالمسؤولية)[1].

٦- عدم اهمال موازين القوى والتجمعات داخل العصبة او المجموعة التي نتوجه اليها، مع الحرص على اهمية عدم اقامة القطع

---

١ - أهمية فهم عمليتي الاسقاط والتماهي في الاتصال لتجاوزهما وليس لنفيهما أو الوقوع في احداهما.

بيننا وبين العالم الخارجي او حتى العالم الداخلي للفرد، وازالة الحواجز المعيقة.

٧- الاكثار من وسائل الايضاح ومعرفة قدرات المجموعة المادية كي نتمكن من تحديد البرامج ووسائل التدريب الخاصة بها.

باختصار، ان اي اتصال مهني، نقابي، اداري او بحثي يهدف الى تحسين الانتاجية والى الاستمرارية والى حل الاشكالات العالقة، لا بد وان يأخذ بعين الاعتبار، القواعد النفسية الخاصة بنية الفرد والاجواء الاجتماعية المحيطة به. ان نظرة شمولية في هذا المجال ترتكز على تفاعل العناصر الثلاثة:

الجماعة - المهنة - الفرد، وهي التوجه الاصح والاسلم كما انها الركيزة التي يمكن ان نبني على اساسها البرامج والتدريب.

فالاتصال هو نقل المعرفة من شخص لآخر، هو عملية تبادل المعلومات بين الاعضاء. انه تواصل رسمي يحمل معنى السلطة والامر والتعليمات. ان الموقع والدور يسمحان بالاطلاع اكثر على المعلومات . لذا علينا اعتماد لغة العقل وفهم الآخر عاطفياً، فالاتصال هو عملية علائقية لا بد ان تثير الغيرة والتنافس وتوكيد الذات، كما ان اعتماد شكل القيادة الديمقراطية (لما لها من فضائل على التخطيط والمقترحات والعلاقات داخل المجموعة وبالتالي على حسن سير العمل وزيادة الانتاجية) من افضل الخيارات في هذا الخصوص.

تمارين عملية

أ- أنت تنتمي الى مجموعة كشفية او نقابية ما ؛ ما هي الامور

التي تعمل على ملاحظتها (والتي ستشكل لك مؤشرات ورموز في عملية الاتصال مع افراد المجموعة) ؟ ثم كيف تحدد نوع هذه المجموعة والعلاقات بداخلها؟.

ب- ما هي الاسئلة التي تود توجيهها في أول لقاء لك مع احد افراد مجموعة ما بهدف معرفة مشاكله؟

ج- حدّد برنامجاً للإتصال بمجموعة ما تختارها وتحدّدها على مدى ثلاثة ايام.

الفصل الثاني

تقنية الملاحظة

١- مقدمة:

ونحن نقرأ كتاب د. «خالد زيادة» «يوم الجمعة -يوم الاحد»[١] وهومقاطع من سيرة مدينة على البحر الابيض المتوسط حاول ان يكتب عبرها سيرة الامكنة والتجاذب فيها بين القديم والحديث ، بين التقليدي والاخر«ولا يخلو الامر من عنف رمزي قبل ان يتحول الى صراع مكشوف»[٢] بدت لنا انها سيرة «ملاحظة» عند اول ذهاب للمدرسة وحتى تبدل الامكنة وتغيير معالم المدينة المنوعة باوقاتها المتلاحقة التي تترك ظلالا لا تمحى وخصوصا ايام العطل في الاعياد وفي ايام الجمعة والاحاد.

---

١ ـ د. خالد زيادة «يوم الجمعة ـ يوم الاحد» ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٩٤ ـ وقد اتبعه بكتاب آخر «حارات الأهل جادات اللهو» ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٩٥، حمل فيه كتابة جديدة تلمّ بالتحولات التي عصفت بالمدينة مجتمع السيرة والتاريخ والانتربولوجيا: اين نحن من تحوّل الحي والحارة، والساحة العامة وهذا العمران المتدافع؟ اين نحن من المكان؟.

٢ ـ المصدر الأول نفسه ـ ص ٧.

لقد خشي «زيادة» من الوقوع في صنعة المؤرخ او كاتب العاديات، كما خشي اكثر من ان تتحول كتابته هذه الى سيرة خاصة وذاتية...[1]

ونحن نقرأ ايضا مقالة د .« منى فياض» عن «الكوبل»: «نمط اخر من الزيجات في بداية السبعينات – نظرة مغايرة للذات للتقليد»[2]، وفي ملاحظتها لمشاهد متنوعة لاعلان الارتباط في مجتمعنا والتي ربما قد تختلف بالشكل لكن مضمونها يبقى متشابها؛ والتي طرحت من خلال هذه المشاهد والمواقف وجهات التغيير التي لحقت بالشريكين او «بالكوبل» ، اوردت تقول:«اودّ بدايةً عدم ادعاء التنظير لحقبة او لجيل او لاي موضوع، انها فقط بضع ملاحظات تتعلق بشريحة اجتماعية ضيقة، في فترة زمنية محددة ...الخ».

ونتساءل ايضا عندما نقرأ كتاب "Richard Millet" "Un bal-con à Beyrouth"

وهو يصف بيروت التي يحنّ اليها والتي لم يزرها منذ سنة ١٩٦٧ والتي وصفها «ببلد الطفولة» ، نتساءل عن مدى موضوعيته وهو يتحدث عن ملاحظاته لضوء بيروت ، لليلاها ، لصباحها ، لشتائها. لربيعها ، لعيون «مريم» فيها.

نتساءل كما نتساءل كل مرة نقرأ فيها مثل هذه الكتب والمقالات التي تعتمد الملاحظة والوصف اساسا لها او تعتمد على رصد المواقف

---

١ – المصدر السابق نفسه ص ٨.

٢ – من الكتاب المتخصص الأول: باحثات – دار الرازي – بيروت ١٩٩٤ – ١٩٩٥ – ص ٤٧.

والمواقع الاجتماعية في الحياة اليومية عن مدى امكانية تحليل ملاحظاتنا المرصودة حسيا واعادتها بشكل موضوعي يبتعد عن الذاتية والفردية؟؟

وقررنا خوض التجربة مع طلاّب وطالبات معهد العلوم الاجتماعية/ السنة الثالثة للعام الجامعي ١٩٩٥/١٩٩٦. في مادة من تقنيات البحث ، وهي تجربة لم تكن الأولى من نوعها ، لكن تميزها كان بترك الخيار لهم في اختيار الفكرة او الموضوع الذي سيلاحظونه[١]، بعد ساعات طويلة من النقاش والبحث النظري للتقنية ، ومما شجع على ذلك تواجد نسبة غير ضئيلة منهم تعلن بداية انتهاء الجهل والحرب وابتداء الجدية والتفكير السليم: لقد شجعنا باختصار انضباطية وجدية اشتقنا اليها نحن الاساتذة في سنوات الحرب والتدمير.

وذهبوا الى الحقل، وتنوعت الملاحظات، وتنوعت معها الهموم وتنوّعت الوضعيات؛ لكن التساؤل هذه المرة كان مشتركا ، فتساءلنا كلنا عن موقع الإبنة وهي ترصد الاب وهي معه في مشهد عائلي مسائي؟!

اين هي الطالبة وهي تلاحظ رفاق صفها؟ او الاخرى التي تلاحظ الخيم الرمضانية ؟اين هو الطالب وهو يلاحظ بائع الزهور عندما يشتري الورد منه؟ الخ.. تساؤلات تطرح موضوعية الفعل المُلاحَظْ وموقع الملاحِظْ مما يَلْحَظُه؟؟.

---

١ ـ مما يسمح لهم بتعويد وتكييف ذاتهم على وضعية البحث وعلى إعادة التعمق في التقنية (مساعدة على اكتساب المعرفة).

فتطرح تقنية الملاحظة مسألة " الموضوعية" بحدة، ونتساءل الى اي مدى نقترب او نبتعد عن موضوع البحث؟ وهل ان الحديث عن مسافة وسطية بيننا وبين الحقل هي مسألة ثابتة؟

(امساك الحقل- تقليبه- الاقتراب او الابتعاد عنه) ...

ان الموضوعية هي فعل وعي الذات بما فيها من اصغاء وشفافية وسيطرة على القلق. انها ايضاً عملية تكيّف واكتساب. إنها وعبر "التقنية المستخدمة" تسعى الى تغيير في السلوك. كما أنها تحمل في نفس الوقت كافة احتمالات الاسقاط؛ فوجود الملاحِظ لا بدّ ان يربك الملاحَظ (فما هو موقف امرأة امية تجاوزت الاربعين، تلاحظها طالبة اثناء صفها في «محو الامية»)؟

لقد عرّف Reuchlin علم النفس على انه علم الملاحظة:Science d'observation وهي برأيه (اي الملاحظة)، كلما توجهّت توجهاً علميّاً وتجريبياً تصبح اكثر نظامية. ويمكن تعديل شروط الملاحظة لتغطية الوضعية المطلوبة مخافة الحصول على معلومات محددة تُبعد الملاحِظ عن هدفه الاساسي.

اننا نعمد الى تقنية الملاحظة بشكل واع ولا واع في كثير من الاحيان بحيث تأتي كتقنية وحيدة واساسية لإيصال ما نهدفه الى القارىء وليس لنا في هذا المجال الا ان نتذكر كتاب «Alain Blanchet» les techniques d`enquête en sciences sociales[1] في تحديده لتقنية

---

١ - A. Blanchet et autres - Dunod- Paris - 1987.

قديمة- حديثة عمل على وضع اسسها واستقلاليتها كي تخدم المنهجين التحليلي والتجريبي معاً.

يسعى هذا الفصل اذا لالقاء الضوء على تقنية بدأت تتربع وتستقل في ميداني العلوم الاجتماعية والنفسية حيث نتساءل: هل هي تقنية وضعية تسجل وتصف الحديث اوالفعل دون زيادة او نقصان ونكتفي بتحديدوحدة الاهتمام (الفرد اوالجماعة) ونوع الفعل والمكان الذي يتم فيه (حجرة-ساحة-مصنع)؟!

ام أنّها عملية نشاط معرفي تدخل في خدمة اهداف متعددة وتدخل في اطار مشروع انساني كلي يتعدى الوصف لمعرفة وفهم وتحليل ما يدور في المحيط من احداث ووقائع؟؟.

قبل ان ندخل في اجابة عن هذا السؤال ، نطرح موضوع العلاقة بين الملاحظة من جهة والتجربة من جهة اخرى.

انهما (اي التجربة والملاحظة) يتعاطفان خاصة في ميدان علم النفس، والقليل من لم يرصد- ومنذ القديم – هذا التعاطف الذي دخل في عرف التقليد ، ونحن اذا اعتمدنا رأيMoscoviciفي هذا المجال فاننا نجده يفضل التجربة على الملاحظة ، لكنه رغم هذا التفضيل يؤكدعلى اهمية الإثنتين معاً، فالواحدة تؤمن غذاء الاخرى وهذا ما هو عليه الحال في اغلب مواضيع علم النفس الاجتماعي. الاّ انه يمكن القول ان الصعوبة في واقع هذه التقنية في بلادنا، تعود الى قلة تطبيقها واقتصارها على الوصف والمشاركة الاتنوغرافية.

الملاحظة هي تقنية تدخل في صلب المنهج الوصفي و يُعمل حالياً

على ان تكون في صلب وخدمة المنهجين التحليلي والتجريبي ولكنها لا تصلح مثلاً للدراسات التاريخية او الاتجاهات والقيم. وعلينا تحديد وحدة الاهتمام (فرد- جماعة) ونوع الفعل والمكان الذي سيتم فيه (حجرة- ساحة مصنع) وعلينا تسجيل ما حدث دون زيادة او نقصان.

- ان الملاحظة هي عملية نشاط معرفي تأتي في خدمة اهداف متعددة وتدخل في مشروع كلي للإنسان، لوصف، معرفة وفهم المحيط والاحداث حيث تدور.

عمل الملاحِظ الذي يهمنا يمكن أن يتبلور في عروض شفاهية او مكتوبة لما شاهده ولاحظه . ولقد اصبحت هذه التقنية حالياً استراتيجية عمل يسعى اليها المربّون والعاملون في ميادين الخدمة الاجتماعية كونها تعتمد على مجموعة افعال تساهم لاحقاً في تشخيص الحدث او الفعل .

٢- هل بإمكاننا تعريف تقنية الملاحظة ؟

الملاحظة هي حصيلة عمليات عدة يمكن بواسطتها ايجاد نموذج للتحليل نبدأه بفرضية ومفاهيم ويخضع للتجربة: تجربة الوقائع الملحوظة حيث تجتمع الكثير من المعلومات التي يمكن ان تحلل بشكل نسقي...

انها بمعنى اخر مرحلة وسطية ما بين بناء المفاهيم والفرضيات من جهة وبين فحص واختبار المعطيات من جهة اخرى[1].

---

١ - R. Quivy - Manuel de recherche en sciences sociales. Dunod - Paris 1995.

...فكما في الفيزياء او الكيمياء ، يمكن للملاحظة ان تأخذ شكل التجرية ، ولا يمكن الاستفاضة فيها لان شروط تطبيق التجربة قلما تكون حاسمة في البحث العلمي الاجتماعي! انها نسبية في العلوم الاجتماعية والنفس -اجتماعية وهذا ما يرتبط مباشرة بمسألة الذاتية والحيادية في الملاحظة!

يمكن القول انه رغم تنوع التعاريف لهذه التقنية ، فانها تبدأ بتحديد عملها بالوصف وتصل احيانا الى وضعها وضعية « الاستراتيجية»في اطار مرحلة اساسية من البحث نبني على اساسها الاختبارات والاستمارات ، ولا يمكن ان تكون رديفة لكثير من التقنيات الاخرى، بل إنها تطور وسياق مجموعة من العمليات السيكولوجية: اذ يمكن لاي عمل ان يكون معطى تجريبي نتاج ملاحظة مباشرة.

لقد اعطىA. Blanchet الملاحظة صفة المؤسساتية ، إذ يمكن بواسطتها تشخيص المعضلة وادراجها في مجموعة الافعال التربوية – الاجتماعية – النفسية– الهندسية– الطبيعية الخ.

هذا ما يسمح بتدقيق النتائج العامة غير المقنعة وتحديد طبيعة الظاهرة المرئية وما تطرحها من اسئلة.

ان الملاحظة هي طريقة مقاربة مميزة للفعل الانساني لانها تضبط مشروع هذا الفعل.

تبدو الملاحظة وفي هذا السياق،الطريقة الوحيدة الملائمة لطرح مسائل متعددة ، فتنتقل من تقنية بسيطة الى اكثر من تقنية لجمع المعلومات والمعطيات ، انها تسعى لمعالجة المعارف بفتح الطريق امام

مفهوم جديد للوصف في الاتنولوجيا وفي العلوم الانسانية والاجتماعية هادفة إلى تحاشي القطيعة مع العلوم الاخرى التي وقع بها الكثير من علماء الاجتماع، انها تهدف وحسب قول Blanchet على إعادة تنظيم معنى العلوم الاجتماعية . الا انه يجب مراعاة ظروف وشروط سير العمل.

عمل الملاحظة: الوضعية- الوقت - المكان - العلاقة - تقنية التسجيل وهي نقطة اساسية في هذه المسألة.

إنّ نتاج عمل الملاحظة هو عمل تفسيري - ايضاحي متفهم لاشكال أشخاص ومعلومات تَجْمَعُ وضعية الملاحظة بالملاحظ.

فالمعرفة التي نود الحصول عليها لا تخلو من الشروط العلائقية الحركية والمدركة[١] بين الملاحِظ والملاحَظ.

ولقد درس علماء الاجتماع مثلا الطرائف (النكت)[٢]بهدف وصف مراحل دقيقة في حياة المجتمعات ومفاهيم المجموعات فيها ، وتتم الملاحظة في مكان طبيعي وبشكل متدرج، دقيق ووصفي روائي وتنتهي بتقرير مكتوب مقسم ومصنف تبعا لنوعية الاحداث اوالمشاكل المطروحة.

لقد حدد«Brandt 1972»و«Bickman 1977»[٣]نوعية مثل هذا العمل بالنقاط التالية:

---

١ ـ على الملاحظ ان يفهم مثلاً النواحي الجمالية خشية التعقيدات التقنية للحركة وكلها حركات محسوسة، مدركة بالحس.

٢ ـ Les anecdotes.

٣ ـ A. Blanchet les techniques d’enquête en sciences sociales مصدر سبق ذكره ص ٥٥ ـ ٥٦.

أ -اخذ ملاحظات مدونة وكتابة الطرائف مباشرة بعد ملاحظتها البصرية والسمعية.

ب- ادخال (في هذا التقرير) كافة انواع الوقائع والكلمات والافعال للاشخاص الاساسيين.

ج -اعطاء تفاصيل حول الظرف والمكان والزمان والمشاركين.(والمؤسسة ايضاً).

د-تسجيل ردة فعل الاخرين او غيابها.

هـ- استعمال واعادة استعمال النصوص بحرفيتها وبين مزدوجين.

و- احترام التسلسل الزمني وتأريخ الاحداث كما هي.

ز- وصف الافكار الرئيسية والثانوية للاحداث.

ح- الدقة في نقل الكلام والتفاصيل المهمة وعدم المبالغة في استخدام التعابير.

ط- يطلب من باحث اخر وبعد كتابة التقرير ان يتعرف على الطرفة ويسأل او يقابل شهودا ، ثم يطبع كامل التقرير ويحلل.

٣-انواع الملاحظة:

مما لا شك فيه ان عدم احترام تطبيق المراحل في تقنية الملاحظة يمكن ان يؤدي الي اخطار فادحة تضُر بنوعية وفائدة البحث...

لذلك فان تحديد الهدف الذي تعمل الملاحظة من اجله هي مرحلة

مهمة: ماذا علينا ان نلاحظ؟ ضمن اي اطار نظري مفاهيمي يمكن ان تتموضع ملاحظتنا؟ على اي من الفرضيات سنعمل؟

ومما لا شك فيه ان تنوع الطرائف في هذه التقنية يرتبط بنوع المعطيات التي نود قطفها[1][2]

تميزت Hélène Chauchat في كتابها- l`enquête en psycho sociologieبين ثلاثة انواع او طرائق من الملاحظات:

الملاحظة المشاركة- الملاحظة المباشرة - الملاحظة غير المباشرة ثم زاد Omar Aktouf. في كتابه:-Méthodologie des sciences sociales الملاحظة التوثيقية والملاحظة المتعددة.

أ- الملاحظة المشاركة l'observation participante

وهي طريقة مطبقة في البحث الاتنولوجي بشكل متطور ، رغم انها يمكن ان تستضيف معها: في مثل هذه الانواع من الابحاث الدراسات السيكولوجية والاجتماعية، تقنية اخرى ، لكنها تبقى الطريقة الاساسية التي لا منازع لها.

---

١ ـ هناك أفعال ملحوظة كلامية أو غير كلامية، يمكن أن تسجل أو تلاحظ بالتقنيات السمعية ـ البصرية أو غيرها (السلوك التربوي ـ الذكريات الحياتية ـ الأفكار والآراء الخ...) والتقارب يبدو واضحاً مع الانتربولوجيا التي تعتمد هذه التقنية في ابحاثها.

Hélène chauchat: l'enquête en psycho-sociologie. p.u.f. par 1995 p = 89 -90

٢ ـ L'homme est un producteur des symboles. O. AKTOUF: Méthologie des sciences sociales et approche qualitative des organisations presses universitaires de Quebec-1992. p = 163.

ومن اهم مواصفاتها انها تفرض على الملاحظ الدخول في المجموعة التي يدرسها فيشاركهم الحياة والمشاعر والانفعالات ضمن علاقة مباشرة (face à face رغم انه غريب عنهم، عن ثقافتهم وعن اشخاصهم .

هذه الجماعة لاتعرف مسبقا حدود المشارك الملاحظ الذي لا يمنعه دوره من تطوير علاقته باعضائها(اي اعضاء الجماعة المدروسة) فيقبلونه كصديق او كشخص يثقون به، مما يسمح له بالتعرّف على ميدان البحث بأدقّ تفاصيله . ويسمح له انتماؤه الحديث للجماعة ان يندمج فيها ويشارك افعالها مشاركة كاملة،[١] (تعلمه مهارات متنوعة كما هو الحال في دراسات المساجين- المهن - القرى الخ)ان دور الاندماج والمشاركة الكاملة يجبر الباحث التحلّي بصفات خاصة وقدرة فائقة لاتقان هذاالدور الاندماجي.

من اهم الصعوبات التي تعترض هذه الطريقة: الحيادية la neu-tralité فحسب قول H. Chauchat ان مقولة الحيادية هنا تقترن بالخرافة والاسطورة، ذلك انه لدى القيام بالملاحظة المشاركة،[٢] ولدى تسجيل الباحث ما يراه وما يجري امامه الى اي مدى ينجح بالاندماج كعضو عادي وكتم مشاعره وعواطفه في مواقف كثيرة[٣]

---

١ ـ وتدخل عدة مستويات: ملاحظة المشارك الكامل ـ الملاحظ المشارك ـ المشارك الملاحظ والملاحَظ وهي انواع وادوار ميزها Junker 1952 معتمداً في تمييزه هذا على درجة نوع المشاركة والملاحظة: د. مصطفى عمر التير ـ مقدمة في مبادئ واسس البحث الاجتماعي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت ١٩٨٤ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

٢ ـ يجب تحديد المشاركة في مواقف الجماعة دون اخفاء دوره كباحث.

٣ ـ H. Chauchat المصدر نفسه p = 92.

ان دراسة وفهم الظاهرة الملحوظة تعتمد على مدى الارتباط الشخصي للملاحظ ، فهو حينما لا يكون مشاهداً فحسب، بل ممثلا متساويا في الوسط الذي يدرسه؛ هل يقبله الاخر كصديق ام كشخص عادي؟[1]

تساؤل يعيد طرح مشكلة الموضوعية ويثير الكثير من النقد ومع ذلك فإن هذه التقنية تبقى الطريقة الوحيدة المتبعة في كثير من الميادين.

ب – الملاحظة المباشرة l'observation directe

ترصد هذه الملاحظة الحقل مباشرة حيث تدور الظاهرة بهدف استخراج المعلومات (كباحث يبحث عن بعض المظاهر القروية مثلا او اخر يحضر بعض اجتماعات مجلس الوزراء الخ...) التي تؤمن له معرفة عميقة بموضوع البحث.

إنها طريقة تتطلب جهدا مضاعفا من الباحث لأن عليه ملاحظة الظاهرة ساعة حدوثها وفي مكان حدوثها (حيث تتكون فيها على حد قولHChauchat) بهدف جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات لنسق اجتماعي ما.

لا يمكن للملاحظة المباشرة ان تكون ارتجالا (improvisation) او شهادة بسيطة بل ملاحظة منظومة عملية ومطبقة تبعا لقواعد دقيقة ولفرضيات مبنية سلفا نختبرها. على الملاحِظ ان يشاهد ويسجل ويكتب ما يحدث تبعا لشبكة تحليل وليس تبعا لخلفية صدامية.

---

١ ـ يجب الأّ يقوم هو بدوره باية ردات فعل ضدهم او كل ما يمسّ حياتهم الاجتماعية.

انها ملاحظة ترصدالحدث العفوي سواء كان فعلا كلاميا ، ام غير كلامي، في مجال يضم اشخاصا كثر غير الشخص الملاحظ وهي تدرس مبدأ التفاعل بينهم ولا خطر من عزلهم (كعزل صف في مدرستةلدراسته مفصلا).

ونحن نفتش ايضا هذه المرة عن مبدأ الحيادية ونسعى اليها لكن التغيرات التي يمكن ان تحصل او تطرأ على وحدة الدرس تؤثر بشكل مهم ، فالوقت الذي يجب ان نلاحظ فيه يجب ان يتكرر(ملاحظة وضعية مدرسة مثلا لمدة ٤ ايام خلال ٣٠ دقيقة او ٥ ساعات الخ..)، وتقطيع الوقت هذا يطرح مشكلة تمثيلية العيّنة[١][٢][٣]

يمكن تشكيل المعطيات وتحليلها تبعا لفئات : متجانسة- موضوعية- دائمة- مميزة...

انها ملاحظة امينة لمبدأ الفصل بين الملاحظ وذاته(-observateur sujet) وتتوق لتأليف ملاحظة موضوعية مرتبطة بشبكة مواقف في الظاهرة المدروسة.

ج- الملاحظة غير المباشرة l'observation indirecte

الملاحظة غير المباشرة هي ملاحظة متنوعةالطرائق مختلفة على

---

١ - وهل ان الاوقات المختارة كافية؟ أم نتوجه لزيادة عدد الساعات.

٢ - يمكن استعمال آلة تسجيل أو آلة تصوير أو آلة فيديو لنقل الواقع كما هو.

٣ - يمكن الاستعانة بعدة ملاحظين في نفس الوقت وتوزيعهم في أماكن مختلفة وفحص ومراقبة لكل مرحلة عمل استنساخ من قبلهم.

صعيد الموضوعية، هي محاولة قطف لسلوك او لانفعال كلامي او غير كلامي مثير ، اثار الملاحظ فقدم مثيرات يدرس نتيجتها المعطيات والاجوبة ضمن وضعية واضحة وجلية.

اما الهدف فهو غير واضح بالنسبة للجماعة الملاحظة، الا انهم يعرفون انهم في وضعية ملاحظة وهنا تكمن المشكلة.

على الملاحظ ان يضبط نفسه منذ البداية كي يتمكن من تحديد التفاعل المرئي والمسموع الذي يرصده لدى الجماعة او الفرد!.

تدخل الملاحظة في اطار التحليل النفس- اجتماعي حيث يساهم الفرد في انتاج الاخبار والمعلومات[1] كما يمكن ان يجمع المعلومات دون العودة مباشرة للاشخاص المعنيين[2](جمهور السينما/ المسرح: تعداد الناس عند الخروج-تسجيل ما رآه من لباس وكلام وتعليقات والسؤال يبقى الى اي حد ينجح الملاحظ في الحالتين)؟.

يمكن ان يستعمل الباحث في الملاحظة غير المباشرة ، وسيلة بحث اخرى كاستمارة او مقابلة(بخدمة الفرضية طبعا) تتحول بعد ها المعلومات التي نحصل عليها الي لغة كمية.

ولقد عرف Reuchlin علم النفس بانه علم الملاحظة Science d'observation، وهو يتوجّه برأيه توجها علميا وتجريبيا فيصبح اكثر

---

١ - ما يمكن أن يطرح قلة الموضوعية للمعطيات التي نحصل عليها: يحدد Quivy مصدرين للمعلومات: معلومات مفتش عنها ومعلومات مكتسبة.

٢ - يجب في هذه الحالة التدقيق في المعلومات التي حصل عليها.

نظامية ، ويمكن تعديل شروطه لتغطية الوضعية المطلوبة مخافة الحصول على معلومات محددة تبعد المُلاحظ عن هدفه الاساسي.

د-الملاحظة التوثيقية l'observation documentaire

وهي تقنية تستعمل بكثرة في العلوم السياسية يراجع فيها الباحث الوثائق ويستخرج منها المعلومات الخاصة(تصريحات كلامية- وزارية- انتخاب- زيارة الخ) ويمكن للنتائج ان تكون علمية تدعم حجج انطلاقته[1].

هـ- الملاحظة المتعددة L'observation multiple

تبقى هناك امكانية تنويع طرق الملاحظة بهدف ضمان نتائج جيدة وافضل للظاهرة المنوي دراستها، رغم ان المعلومات التي يمكن ان نحصل عليها يمكن ان تكون اقل شمولية وتكاملاً واكثر اجتزاءً. لكن الرقابة على المعطيات – المقطوفة يمكن ان تعيد اللحمة الى الواقع. وقد كان اول من استعمل هذا النوع K.lychفي كتابه Dunod. paris (1971) l'image de la cité حيث اقترح درس الصور الفكرية لدى سكان ثلاث مُدن اميركية: بوسطن، جرسي، ولوس انجلوس بهدف رصد كيفية تخيل المواطن لمدينته فركز على المكان والجمالية والانطباعات الذاتية ، ولتنفيذ ذلك قام بمقابلات نصف موجهة عمل

---

١ ـ R. Quivy مصدر سبق ذكره.

خلالها على كشف وثائق معلوماتية عن المدينة (طرقها – مساكنها– مرافقها الخ..) اضافة الى وصف خطي او كلامي عنها. لقد انطلق lych من نظرية الشكل geshtalt كي يصل الى البعد الفكري.

وفي بحث اخر لـ Marie -Marie José Chombart de lauwe عن الاطفال(Enfants en jeu) درست فيه العلاقة بين الطفل ووسطه خلال فترة فراغه والعلاقة بين احتياجاته والمجال الذي يعيش فيه ، وأنتجت ملاحظة لظاهرة واحدة متعددة الاوجه واتت بفريق متنوع الاختصاصات نوّع بدوره التقنيات المساعدة (وثائق– مقابلات – دراسة حالات الخ..)

ان فعالية هذه التقنية تكمن اولا في الاجابة على عدة عناصر:

١– عمَّ نبحث؟ (المعطيات المتعلقة بموضوع البحث).

٢–على من؟ (حقل البحث: درس Durkheim مثلا ظاهرة الانتحار ورصد الظواهرالحياتية اليومية التي تميزالشعوب!)

٣– كيف؟ (اختلاف الطرائق والمنهجيات).

٤ ـ مشاكل منهجية:

...«ان القيام ببحث هو فن يتطلب تجربة ونبوغا، ويطرح في كل مرة مشاكل خاصة من الصعب تحويلها لقواعد مبسطة!...»[١]

اذا كان الامر كذلك مع الابحاث بشكل عام ، فان واقع

١ـ Th. Caplow: l'enquête Sociologique-paris A. Colin-collection "U" 2 - 1970. p = 5.

الملاحظة- اي ملاحظة - يطرح مشكلة منهجية اساسية تتمحور حول صلاحيتها، فتحددH.chauchatهذه الصلاحية بمقدار مطواعيتها وتأمينها لاكبر عدد ممكن من المعطيات التي يجب ان تتمكن من الاجابة على التغيرات المدروسة... وتعتبر ذلك شرطاً أساسياً لصلاحية البحث بحد ذاته.

والصلاحية ترتبط مباشرة بالموضوعية ، واي حديث عن طريقة من طرائق الملاحظة لا يبتعد عن هذا الالتباس المنهجي[١]لان طبيعة البحث تفرض أو ذوباناً واو تمازجاً واما مشاركةً وبالطبع تحليلاً.

وتُطرح هذه المشكلة منذ اول خطوات البحث، لدى اختيار الفكرة التي سنبحث عنها: اذ ان هذا الاختيار ، وذاك التوجه النظري لا بد وان يُحدّدا منذ البداية بتوجهات ذاتية فردانية[٢].

ان كافة الامثلة تبرهن على تدخل متصاعد للباحث، خاصة اذا طال الامر سيرة ذاتية يلاحظ فيها الاحداث والامكنة والافعال التي لا بد وان تُدوَّن بانعكاس ذاتي: كيف يراها الفرد وهي ترتبط بذكرياته وماضيه.

وادخال الذاتية يتم في كثير من الاحيان بشكل لا واعٍ ، والمطلوب من الباحث هو محاولة ضبط هذا التورط دون الادعاء بنفيه[٣].

---

١ - أن الطريقة التي ينتقيها الملاحظ للاحظته لا بد وأن يفرض ويحدّد فيها مدى دخوله وذاتيته أضف إلى الاستعانة بتقنيات اخرى (المقابلة مثلاً او غيرها تبعاً لطبيعة التحليل).

٢ - ربما يؤكد بعضاً من الموضوعية لكنه يوقع في التباس منهجي آخر: خوف من طغيان واحدة على الأخرى من التقنيات.

٣ - مصدر سبق ذكره ص ١٦٦.

وقد طرحO. Aktouf في كتابه«منهجية العلوم الاجتماعية» مسألة الاستبطان l'introspection والتدرب على تأمل الذات وتحليلها (مشاعرا واحكاما وانطباعات) . فكلما عاشت وضعية ما تصبح بعدها شرطاً اوليا.

ان هذا الاستبطان – وان لم يكن شديد الموضوعية ـ فانه يغني معاني وابعاد المعطيات التي نحصل عليها فتُحدّد ذات الباحث وتنفصل بعض الشيء عن الموضوع. والملاحظة العلمية التي نسعى اليها هنا تطال مسألة ادراك الذات، ويدخل فيها الاختيار والتأويل ـ دون ان ننسى التحليل (تحليل الأفكار المطروحة) ـ مكاناً مهماً طغى على الانطباعات الحسية.

ومن المخاطر المنهجية التي يجب التحكم بها وعدم الانزلا ق فيها:ممانعة الاخر والنقلة transfert....أوخلق الشعور بالانزعاج لدى المبحوث لانه مراقب ومقيَّم من قبل المُلاَحِظْ الذي يوظف كافة معلوماته لخدمة فرضياته (الرصد بكافة التفاصيل من تاريخ وتكوين وتجربة واسئلة ومشاكل الاكتساب والفطرة الخ..).

ولتخطي هذه المسائل يجب:

أ– التركيز على وظائف محددة ومختارة، ومستوحاة من الواقع، من الحياة اليومية الاعتيادية للاشخاص المراقبين (والخيار هو خيار تحليلي اكثر منه حسي كما سبق القول).

ب– تطبيق سير العمل على وضعيات اجتماعية محددة مختارة ومن كافة المجالات الاجتماعية. مع اعطاء ملاحظات عامة ومباشرة لجمع المعطيات.

ج- سرعة بديهة الباحث مع سرعة في الدخول والخروج من المعلومات التي يريدها ويوظفها لهدف بحثه.

د- قراءة نظرية للفعل المدروس او الحركة المدروسة (جمع معلومات عامة ومباشرة)- مراجعة الاعمال السابقة وبناء الفرضية الاساسية كي نمرّ إلى التجربة ومن ثم الاستنتاج ومن ثم الاعتماد على اسئلة متنوعة.

هـ - مراجعة الاعمال السابقة وبناء فرضية اساسية منظمة ومدّبرة.

فالملاحظة هي المعبر للتجربة وبالتالي فهي غير منفصلة عن الفرضية ومن ثم الاستنتاج.

و- الاكثار من الوصف الكمي ثم اعادة معالجة المعطيات كماً ونوعاً واعادة تصنيفها تبعاً لمحور وهدف البحث، فالملاحظة هي الايجاز، لكنها ايضاً فعل اعادة الترتيب للافعالObserver; c'est résumer en classant

إن معالجة نتائج معطيات الملاحظة كماً ومن ثم نوعاً، ودائماً حسب المواصفات المطروحة او التي طرحها الباحث يمكن ان توحي لنا باستعمالات اخرى اكثر ثقلاً واكثر مساهمة في تطوير وتنمية موقف البحث النافع للحقل الاجتماعي.

شاء ام ابى فإن الملاحظ يدخل في الوضعية بشكل او بآخر. ولكن المطلوب هو ضبط التدخل والذاتية (implication) دون الأدعاء

بنفيها. وكل الامثلة تدل عل دخول متصاعد للباحث: بحيث ان يكون الفعل المدروس مركزاً على وظائف محددة مختارة ومستوحاة من ضواغط التمرين الاعتيادي للعمل لدى الأشخاص المراقبين: (الوظائف بناء السمات وتسجيل الحركات...) .

يجب رصد الملاحِظْ حيث يعمل ويجب مراقبة (او العودة الى) تاريخية الشخص، تكوينه، تجربته، الاسئلة التي تُطرح والتي يطرحها. مشكلة الاكتساب والفطرة عند الشخص inné/acquis، ما اكتسبه من معارف سابقة.. وهذا مما لا شك فيه انه سيخلق لدى الملاحظْ شعوراً بالانزعاج اذ يحسب انه سيُحكم عليه من قبل الملاَحَظْ.

– عملية التذييت و/التموضع Objéctivation-Subjécticvation، نتساءل ما هي وجهة نظر الملاحِظْ حول الموضوع، تموضعه داخل وضعية مدركة؛ طريقته في بناء القراءة وما فرضه الموضوع على ذاته وكيف أثر به.

على ان يكون هذا العمل ذا توجه شرحي مفهوماتي explication et compréhensive، يتصل بأشخاص يتم ترتيبهم تبعاً لنماذج ولأنماط تأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي تجمعهم خلال وضعية الملاحظة.

إن اي معرفة نود الحصول عليها من خلال الملاحظة تتمحور حول علاقة اساسية obsevateur- observé(وهي شروط علائقية). وتساعد الملاحظة الملاحِظ في تماثل العمليات الانسانية التي تبني المعارف وتركز التحاليل العفوية وتقسم النواحي الجمالية و التعقيدات التقنية للحركة. وليست هذه الحركات العلائقيات عفوية، بل هي مدركة (Perceptuels).

٥ ـ العلاقة بين الملاحظة والبحث

يطبق سير العمل المقترح على وضعيات اجتماعية محددة مختارة في كل المجالات من الحياة الاجتماعية داخل العمل او خارجه. والبحث يعمل على ابراز انواع وانساق مختلفة من الاسئلة. واعمال الاتنولوجيا واعمال علم النفس تلحظ تطوراً أساسياً على هذا الصعيد، يبرّر اللجوء الى هذه التقنية على امل ايجاد وسائل لاختبار اسئلة عامة متعلقة بالتأقلم الاجتماعي. ويهتم علماء النفس مثلاً بالطريقة التي يصفون فيها الأشخاص بنيانهم، ووظائفهم تسلسل اعمالهم المرتبطة بقدراتهم وبضواغطهم الوظيفية. (وهذا ما يذكرنا بمؤتمرRouen ١٩٨١)، وما ركز عليه من اهمية رصد منطق الشخص وحركته وهو في وضعية العمل او اثناء انجاز الوظائف المعقدة.

أن نلاحظ، فإن ذلك يعني ادراك المواضيع الاجتماعية المعقدة داخل وصغية ملحوظة اجتماعية ملحوظة تتداخل فيها المعطيات الفيزيائية، الحيوانية والانسانية، لاعطاء، لاحقاً، مجموعة من المؤشرات على ظاهرة غالباً مالا تدرك مباشرة، والخطوة الاولى نحو الموضوعية تهدف لبناء وإعطاء اشكال معروفة وغير متغيرة، حيث يعمد الملاحظ لعكس بعض من الحقيقة او الواقع وإعادة بناء اشياء اخرى بمساعدة كلمات تتردد ورموز تقبل في الجماعة ...

* نقول اخيراً ان الملاحظة العلمية هي ادراك واضح، عملية اختيارية (تحليلية) interprétative تداخلية للافكارالتي يجب ان تتغلب على الانطباعات الحسية...

٦ ـ تقييم وضعيات الملاحظات الميدانية:

(كيف طبقّت هذه التقنية في ابحاث طلابية " طلاب السنة الثالثة – معهد العلوم الاجتماعية")[1]. ان فكرة الذهاب الى الحقل فكرة غير سهلة، كما ان فكرة تطبيق الاطار النظري تبقى مدار بحث وتساؤل ونقاش ، فالكثير من الطلاب ؛ اعاد بناء ملاحظاته الميدانية بعد فترات النقاش الطويلة في الصف خاصة وانهم لم يصلوا بعد الى طور امتهان هذه التقنية.

الا ان الكل تساءل بنفس المقدار عن كيفية ابتعاد الذات وايضا عن كيفية استحضارها، ذلك كان المحور الاساسي في العرض وفي النقاش.

والانطلاق كان حول الافكار التي يمكن ان تلاحظ دون غيرها. فالملاحظة ساعة تطبيقها تنطلق من لحظة ولا تكتفي بها بل تطلب الغوص والابتعاد في كثير من الاحيان عن افكار مختارة لا تصب الا في افق فلسفي نظري، وايضا عن اسلوب روائي قصصي لا يقبل الا ان يحاكي ذاتية الراوي (اهمية اختيار الموضوع الملحوظ).

كما ان ترك الخيار للطلاب في افكارهم ومواقفهم الملاحظة يسمح بمعرفة مدى تضخم الذات وفكرة الذاتية غير المضبوطة، ويمكن القول ان نوع الملاحظة المختار قد تنوع ما بين الملاحظة غير المباشرة والملاحظة المتنوعة او المتعددة.

---

١ ـ اختار طلاب السنة الثالثة، لتطبيق تقنية الملاحظة، مظاهر من الحياة اليومية بعد أن انطلقوا من معطيات نظرية مكثفة.

نذكر في هذا السياق اهم المواضيع التي عمل عليها هؤلاء الطلاب :

تفشي ظاهرة الخليوي بين الشباب- حلقات الذكر- سلوك النساء في المآتم- سلوك المرأة المسترجلة-الخيم الرمضانية- فكر ونتاج الطلاب في جامعة محددة- ملاحظة صف لمحو أمية نساء متقدمات في السن - ملاحظة شيخ (منجّم)- ملاحظة سلوك زوجات الاخوة - مراقبة اولاد في ملجأ يلعبون خلال القصف الاسرائيلي الاخير لجنوب لبنان (نيسان ١٩٩٦) - ملاحظة مصلٍّ يصلّي في المسجد - ملاحظة الفتيات في السكن الجماعي (بيت الطالبات) (Le foyer) - ملاحظة قاعة الاعارة في المكتبة .وكثرت المواضيع التربوية على انواعها (الطفل لدى ملاقاة امه بعد المدرسة- المعلمة في الصف مع تلاميذها- مراقبة صف معين خلال اسبوع الخ...).

يمكن القول بادئ ذي بدء ان اعمال التطبيق الستين للعام الجامعي (١٩٩٥- ١٩٩٦) كانت مدفوعة من ذات الطالب؛ اي انه كان يعيش يومياً الظاهره التي لاحظها، فقد كان يواكب التقنية على شكل تنفيس المكبوت والكامن (se défouler)(١) .

لقد كثرت وتنوعت صعوبات التجربة الميدانية ؛ ويمكن تقسيم أخطائها منهجياً الى قسمين :

١- أخطاء في التمرين (وهي اخطاء تتطلب وقتاً في تطبيق التقنية وامتلاك المعرفة).

---

١ - كان التجاوب شبه مطلق مع هذه التقنية - وكانت محببة الى نفوس الطلاب لأنها تجانست مع الواقع.

٢- اخطاء التكوين[1] (لها علاقة بالنمط المدرسي المعتمد عليه من قِبل أغلب طلابنا، وهي أخطاء لم يتمكنوا من تجاوزها؛ و تصب في مسؤولية النظام التربوي التلقيني ومسؤولية البرامج).

نختار فيما يلي عرضاً تقييمياً لبعض المواقف المُلاحَظَة والتي لا تتطابق مع النقاط التي تم طرحها في بداية البحث :

أ- أخطاء تكوينية تتعلق بصياغة الفرضية ، فالعمل على ظاهرة ما وتقنية محددة يلعب دور صلة الوصل مع الواقع (او دور الاداة الاكاديمية) ولا بدّ ان ينطلق من فرضية ما ؛ الا ان ما حصل في ابحاث الطلاب هو ذلك المزج ما بين الفرضية والمشكلية والتساؤلات فيها فغالباً ما شكّل السؤال الفرضية عند بعض الطلاب اذا لم نقل معظمهم

ب- طغت بكثرة بعض التقنيات الأخرى على تقنية الملاحظة (المقابلة، مثلاً) ، وعلى سبيل المثال فإن احدهم لاحظ احد الحِرَفِيِّين خلال خمسة ايامٍ متتالية مع زبائنه، فوجد القارئ نفسه وكأنه امام مقابلة وليس ملاحظة . لقد كان هدف البحث التدريب الذي يسعى لامتلاك وسيلة منهجية محدده وليس الغوص في وسائل متعددة في وقت واحد .

ج- إهمال لما يفرضه البحث ومنهج التقنية من :

١- تنظيم عملية الوصف باعتماد مدّونة ، عيّنة او متن Corpus.

---

١ - وهذا ما يذكرنا بقول Quivy: إن المعلومات التي يكوّنها الباحث لا بد وأن تكون متأتية من مصدرين: معلومات مفتش عنها ومعلومات مكتسبة.

٢- تطبيق سير العمل على وضعيات اجتماعية محددة مختارة ولكن البعد كان بُعداً ذاتياً وليس بعداً علمياً .

٣- تنظيم الافكار بشكل تسلسلي وادخال كافة انواع الوقائع والكلمات والافعال للأشخاص المراقبين .

٤- التسلسل الزمني (ومدة الملاحظة التي تتطلب التكرار، فغابت التفاصيل حول الظرف والمكان والزمان، ولم يحترم دائماً تأريخ الاحداث كما هي وكما حدثت ...)

٥- لم تتيسر دائماً سرعة بديهية عند الباحث في الدخول والخروج من المعلومات التي يريدها ويوظفها لهدف بحثه، فلم يكيف ذاته ولم يطرح التساؤل في الوقت المناسب ..

ولم يطرح حتى دائماً اعادة استعمال النصوص بحرفيتها وبين مزدوجين.

٦- تفرض البنية الملاحظة مستويات للدراسة مترابطة ضمن هيكلية لا يمكن تجاوزها؛ فالدرس والملاحظة في قاعة اعارة في مكتبة جامعية يجب الا يقتصرا على مكان عمل الموظفين دون التطرق الى مستوى آخر حيث توجه هؤلاء وحيث تربطهم العلاقة او الوضعية: مكان القراءة ،حيث يتواجد الطلاب، يؤدي الى البتر في الموضوع او الى تبني وضعية او موقف محدد يجب عدم الكشف عنه قبل الحصول على المعلومات الكافية. وبذلك فإن التعرف على كامل الظاهرة كان ناقصاً فلم يتم تعرّض كامل افراد الظاهرة للشهود ولم يجمع ما بين الدال والمدلول.

د- عدم التمكن من معرفة او تحديد نوع الملاحظة التي يجب اختيارها.

هـ - عدم التروي والاندفاع غير المبرر في استخدام الأرقام ، كالقول مثلاً: نجحت الفرضية بنسبة ٥٠٪ دون اي تفصيل يذكر .

و- ظهور صعوبات تقنية لم يُعمل على تجاوزها او التغلب عليها بجدية : كذكر الاسماء الملاحظة بتفاصيلها مما يتنافى مع السرّية المطلوبة. (وربما اتى تبرير هذه السهوات تحت عنوان ذاتية الباحث المأخوذ بعمله، المنسجم به والمفرق فيه لحدّ عدم فصل الذات عن الموضوع رغم معرفته المسبقة بمحاذير عدم الفصل).

٣ - اتى التحليل - وهو المرحلة النهائية من التطبيق - غير كافٍ ، بل ناقصاً ومبتوراً في كثير من الاحيان ؛ فغالباً ما كنا نرى انفسنا في وضعية قطع مفاجئة تنهي العرض قبل ان تُعلن عنه ؛ وقد يكون مردّ هذا الى التكوين المدرسي الذي تأسس عليه الطالب مبتعداً عن الترتيب الرياضي المنطقي في العرض (طرح المعطى - تبريره وبراهنيه وادلته - تحليله ونتائجه) .اما صعوبة التسجيل والتدوين فقد كانت بارزة وقلمّا تمّ تجاوزها بحكمة او بديهية مطلوبة.

ونذكر ان اثنين من العينة (٢/٦٠)، ارفقا بملاحظاتهما المدونه صوراً فوتوغرافية اعطت مزيداً من الاطلاع والتفاصيل وفتحت المجال اكثر امام التحليل والمقارنة :

- تصوير محلين للزهور يتنافسان على البيع وعلى استئثار الزبائن .

- تصوير المجال المنزلي الخارجي والداخلي الذي يحددّ بين الاقارب والذي ظل على مدار سنوات مركزاً لصراع الاخوه .

ان ذكر وقائع المجال وتفاصيل المكان (حيزٌ خاص وحيز عام) مهم جداً مع ذكر طريقة تدوين المعلومات ، فالرسوم الهندسية التي قدّمتها " فريال" لدى ملاحظتها " الانثى المسترجلة " زادت من اهمية البحث المقدم : (فهي قد رسمت مجال هذه الانثى) ومكانها حيث تعمل بمحتوياته من غرفة وشرفة وباب دخول وبهو مجاور ومكان جلوسها امام زميلها الذكر واستقبالها الخ ...

ونذكر في هذا المجال ايضاً ان اللجوء الى الحيلة المنطقية التي يمكن ان تسيطر على وضعية القلق الناجمة عن الدخول بالمواقف الصعبة للباحث هو لجوء مبرّر في كثير من الاحيان ... كما فعلت احداهن بدون تخطيط سابق كي تدخل الى عالم الشيخ الذي يلجأ الى بعض الطقوس في معالجة زبائنه المرضى، لقد اردفت تقول بهذا الخصوص :

فجأةً فتح باب داخلي للصالون .انبعثت منه رائحة البخور، خرج رجل باتّجاه الباب الخارجي ومضى .. لا شك انها غرفة الحاج ... احترت كيف ادخل واكلّمه ... ولماذا سأدخل ... اعتراني بعض الخوف والقلق .. وفجأة خطرت لي فكرة وهي ان اطلب من السيدة التي تجلس امامي وسبق وحادثتها ان ارافقها . هذا اذا لم تمانع ، وتعهدت لها بألا اتكلم عن اي شيء اراه ، وقلت لها انني طالبة جامعية ابحث فقط ... ودخلت ... وقبل ان تبدأ المرأة بشرح مشكلتها .. احسست انني دخلت بطريقة

غير لائقة .. واحسست بخطر اسلوبي هذا على عملية متابعتي للملاحظة .. فوقفت واقتربت من الحاج ... مستأذنة الكلام والتوضيح .."

نستنتج ان تحديد موقعنا في وضعية الملاحظة مرفقاً بتبرير مستمر لدخول الملاحِظْ (متى- كيف) مهم وضروري، لكنّه أُهمل من قِبل العديد من الطلاب.

ز- اخطاء الوقوع في الاسلوب الروائي فذاتية الراوي واسلوبه الذي يقترب من الخيال يطرحان مسألة الذاتية . ومع ان الرواية هي موضوع قابل للنقد العلمي إلاّ أنّ اسلوبها الانشائي يبعدنا عن التركيز على دلالات الوضعية المُلاحَظة.

كما أن العرض الافقي الوصفي للمعلومات عرض تحليلي فهو ربما كان عرضاً ممحبباً لكنه يمكن أن يكون غير كافٍ لأنه لم يدخل برصد مفصل فها هي «منتهى» مثلاً تصف بجدية «من على تلك الشرفة المطلة من الاعلى، حيث ينكشف لنا ذلك الشارع الذي تمشيه صعوداً حتى تصل الى داخل حرم الجامعة ، ومن تواجد شبه دائم داخل حرم الجامعة تظهر حالات كثيرة ومتكررة استدعت انتباهنا ولفتت نظرنا بدءاً من اسفل الدرج انتهاءاً الى داخل الكافيتريا " ...

ح – سمح الكثير من الطلاب لانفسهم استخدام مفاهيم نفسية دون الاطلاع على ابعادها بالتفصيل(كالذهان والعصاب مثلاً)، وهو امر يتطلب الدقة المطلقة.

–سمح الكثير من الطلاب لانفسهم ايضاً اطلاق الاحكام منذ البداية وبدون بذل جهد او عناية في اظهار الدلالات الواقعية الوصفية او

حتى رؤية الوضعية بكليتها (الاعتماد على مبدأ الجشطلت) وعموميتها ثم التدرّج الى التفاصيل..

لقد كنا نقترب في كثير من الابحاث المقدمة من المواقف العاطفية التي تداخلت وقيدت الذات واجبرتها[1] على اطلاق هذه الاحكام في غير وقتها، عند عدم التمكن من الابقاء على مسافة وسطية بيننا وبين البحث، كان الاسقاطprojection سيد الموقف، ففي ملاحظة حلقة الذكر ، لم تتمكن "هانية "الا من ابداء رأيها، وفي اول وصفٍ وعرض لملاحظاتها كتبت تقول :

«نسوة يعشن حالة فراغ موحشة ، يعانون من الوحدة – وضغوطات الحياة المعيشية تشعرهن انهن غير منتميات اقتصادياً مما يزيد في داخلهن حالة الحزن والكبت فيجدن في ممارسات حلقات الذكر تفريجاً عن تلك الضغوط ويشعرن ساعتها بنشوة عارمة تملأ قلوبهن وبراحة نفسية وغبطة وسرور".

ط- كثر خيار المواضيع التي التصقت بالذات ثم المواضيع التربوية ثم المواضيع الإعلامية :

٢ – المواضيع التربوية (رصد صفوف الحضانة – الابتدائي – علاقة التلميذ بأهله – بمدرّسه– صفوف محو الامية الخ ...) بنسبة ٣٠٪ .

---

١ – يخضع تقييد الذات الى الكثير من الكرّ والفرّ والهدف هو التعود على وضعية البحث وعلى الابتعاد عن المواضيع التي تلتصق بالأنا.

١- المواضيع الذاتية التي طرحت بدورها دينامية الحياة الاسرية وموقع السلطة فيها بسلبيتها وإيجابيتها (محبه او كره) اضافة الى مواضيع اسقاط ما يعانيه الشخص نفسه: سكن الطالبات - النقل العام وازدحام السير الخ ...)[1] بنسبة ٤٠٪ .

٣- المواضيع الاعلامية ٢٠٪ :

فهذه هي المسلسلات الاجنبية - المكسيكية المدبلجة على سبيل المثال التي تجذب انظار الساهرين وتسحرهم :

...« مما لاحظناه هو فتحةالعين لدى المشاهد ، فلا يعود يرف له جفن ويتوقف جسده لبرهة عن الحركة، كما ان قسمات الوجه لديه تصبح اكثر جدية واكثر قساوة لمشهد قاس كان قد مر ، اواكثر عذوبة اذا كان المشهد عاطفياً. فنرى في ملامحه تأثره الكامل والمفرط لمايدور امامه على الشاشة فاذا حصل مكروه لاحد الابطال ، ثارت عصبيته فيبدأ بفرك يديه ويحرك قدميه متوترا ويحني ظهره الى الامام متأهبا للدفاع عن الضحية، اما اذا مات البطل فان الامر للوّع،ويضرب الابن الاوسط بيده الطاولة اعرابا عن استيائه لما حصل ، ويسيل الدموع تأثراً...»

٤- مواضيع متنوعة ١٠٪ :

ي- اخيراً ، فإنه يؤسفنا تواجد هذه اللغة العربية المفككة الاملاء

---

١ - رصد الأب - الأم - الأخ - الأخت - ابن العم - زوجة العم - وهو رصد له تفسيره النفس - اجتماعي لأنها مواضيع تطرح موقع ذات الباحث، كما طرحت لمسألة لـ Inceste او للغيرة الأنثوية إلخ.

والقواعد ؛ فإذا كان واقع حال طلابنا مع البحث العلمي الاجنبي واقعاً صعباً فماذا ترانا نقول عن واقعه مع اللغة الأم ؟

ونستدرك القول مباشرة انه امر يتطلب خطة مسؤولة ومنظمة لا تطال فقط واقع البحث في العلوم الانسانية فحسب، بل واقع الابحاث في العلوم كافة .

ان الملاحظة هي تقنية مستقلة ، نزعت عنها صفة الوصف كي تدخل اطار التحليل (الذي يجب ان يلي الوصف) لكي تَعْبُرَ للتجربة .انها عمل منهجي يعمل على تحديد ذاته بعد ان كان بامكان اي شخص ان يطبقها بوعي او بلاوعي في انتاجه وابحاثه.

ان نلاحظ ، يعني ان ندرك مواضيع ومواقف اجتماعية معقدة داخل وضعية اجتماعية ملحوظة تتداخل فيها المعطيات الفيزيائية – الحيوانية والانسانية لاعطاء مجموعة من المؤشرات تدل على ظاهرة غالباً ما لا تكون ظاهرة مباشرة ، على ان يهدف هذا البناء الى الموضوعية التي تعكس الحقيقة والواقع. واعادة البناء يجب ان تحدث بمساعدة ما تم الحصول عليه :

كلمات ترددت – رموز الجماعة – مواقف ووضعيات معينة الخ .

لكن ، الا يزال التناقض حاصلاً ؟

أوليس الهم الذي سنبحث عنه وسنلاحظه هو همٌ ينبع من الانا وبالتالي من الذات ؟

فكيف لا ننزلق وكيف لا نفصل ذاتنا عن موضوعنا ؟

الجواب انه علينا استخراج ذلك الخيط الرفيع ، تلك الشعرة التي تفصل فكرتي الذاتية والموضوعية متحاشين قدر الامكان فكرة الاسقاط معتمدين على الوعي لوضعيتنا الملاحَظْة (ملاحِظْ – ملاحَظْ).

إنها نقطة الانطلاق ، نقطة الصفر وايضاً نقطة بداية التمرين . انه سلوك في البحث العلمي يجب ان نتعوّد عليه، ان نواكبه معرفياً .

إلاّ ان التساؤل حول السبيل لتحاشي اخطاء التكوين هو تساؤل لا يزال قيد الطرح!.

الفصل الثالث

تقنية المقابلة

- مقدمة:

بعد أن حددنا تقنية الملاحظة بأنها:

١- استراتيجية عمل المربين والعاملين الاجتماعيين (اي انها مجموعة افعال تساهم في التربية والتشخيص).

٢- مرحلة او طريقة بحث نبني على اساسها الاختبارات والاستمارات .

٣- تقنية تهضم نتاج العمل الملاحظ (وكل معطى تجريبي هو نتاج ملاحظة مباشرة).

٤- سيرورة ومنحى عمل بحثي (مجموعة العمليات السيكولوجية في عمل الملاحظة).

نجد ان كل المعلومات التي يمكن ان نحصل عليها تسمح للمراقِبِ بإشباع حشريته الفكرية ومعالجة معرفة منسّقة عن الموضوع المبحوث واعادة تنظيم السلوك المهني.

ولقد ظهر لنا أن بعض النتائج العامة غير المقننة للملاحظة تسمح بتدقيق طبيعة الظاهرة المرئية والاسئلة التي تطرحها وتتعلق بظروف وشروط سير العمل (الوضعية – الوقت – المكان – العلاقة – تقنية التسجيل).

نتناول في هذا الفصل تقنية المقابلة، لكن بعد أن نعرض سريعاً لتقنية الاستمارة بهدف المقارنة لاحقاً بينها وبين المقابلة على الصعيدين الميكروسكوبي والماكرو سكوبي.

١- ملاحظات سريعة حول تقنية الاستمارة Le questionnaire

من الطبيعي الإعتبار ان كل دراسة ميدانية كاملة يجب ان تبدأ بمرحلة نوعية على شكل مجموعة ملاحظات او حتى مقابلات غير موجهة تتبعها مرحلة كمية، وتطبيق استمارة على عينة تسمح بالمعالجة الاحصائية ونتحقق خلالها من الفرضيات المطروحة اثناء المرحلة الاولى ونكملها بمعلومات رقمية.

ويعُتمد حالياً البدء بتقنية الاستمارة كمرحلة اولى، بحيث نُخضع معطياتها لمعالجات احصائية دقيقة ربما لا تسمح اطلاقاً بدراسة الحالة، بخصوصياتها ومدى تأقلمها الاجتماعي مع محيطها وعلائقيتها بهذا المحيط، ثم في مرحلة ثانية يستكمل البحث بمقابلات نصف موجهة، وربما مطولة مع اشخاص من نفس العينة المدروسة مما يسمح بمعرفة الذات وخصوصيتها بدقة اكثر، ومدى تداخل مواقفها مع الآخرين. و كله يسمح لنا بالوصول الى السيرة الذاتية ودراسة الحالة التي نريد

تحليلها، ومن المستحسن لفت النظر في هذا الاطار الى التحوّل الحاصل حالياً في اسئلة الاستمارة من اسئلة مغلقة الى اسئلة مفتوحة متدرجة تراعي التسلسل النفساني وتهيّء للمقابلة او للسيرة الذاتية كي تترك الحرية في التعبير للوصول الى دلالات اكثر عمقاً للإجابات التي نحصل عليها.

* هدف الاستمارة:

١- رصد بعض المعايير المطلقة ــ مصاريف خلال فترة محددة مثلاً.

٢- رصد معايير شعبية كدراسة طوبولوجية، شعب، نمط..

٣- وصف مجموعة (عينة) لإعطاء خصائص المستهلكين لقراءة مجلة ما.

٤- التحقق من الفرضيات ـــ التحقق مثلاً اذا كانت الطبيعة لسلوك معين تختلف تبعاً للعمر. (يُعمل حالياً على تطبيق طريقة وسطية ما بين الاستمارة والمقابلة).

- ان الاستمارة هي ايضاً عملية اتصال شفافة ينتج عنها ومشهد ووضعية.

ويجب الأخذ بمسائل : الكمية - النوعية- العلاقة- النموذج Modalité .Soyez Clair

* خلال تعبئة الاستمارة يأخذ المبحوث عدة مواقف :

* الاثبـات انه على عـلاقـة جـيـدة مـع البـاحـث واعطائه الاجـوبة لارضائه.

* اعطاء فكرة جيدة عنه.

* اعطاء فكرة مطابقة، طبيعية عنه...

الاتصـال مـع الشـخـص الآخـر، يعـني ان نحـادثه ونكلّمـه، وكل اتصــال هو اتصــال مـتـأتٍ من نظام ومـن بنيـة الواقع وليس من نظام مصداقية وشرعية الوضعية .

* اهمية بناء الاستمارة

يجب التركيز على الأسئلة، فالأجابة متعلقة بكيفية صياغة الاسئلة، وتعطي الدقة فيها فكرة عن العالم المحيط مع انه يجب ألاّ يغيب عن بالنا اننا يمكن ان ننسى.

- يجب التركيز على بناء الاستمارة وتكوّنها وعدم اختلافها مع الواقع المرجعي. لان الاستمارة ليست اكثر من حقيقة مرجعية تحيط بالفـرد وتطرح له ادوراً يمكن ان يكون قـد مـارسـهـا او هـو بصـدد ممارستها.

لو احاطت الاستمارة بكل الاسئلة التي يمكن ان تطرح بخصوص موضـوع مـا، او أن الاجـوبة التي نحصل عليـها تخص صـفـات الفـرد وبناءه فإنها تصل الى مبتغاها. وهدف الاستمارة هو الكسب المعنوي في اجوبة يمكن ان تعرّفنا على عالم ما او على نمط من انماط الحياة. لكن هل تنجح كلياً؟ وهل يمكن ان نطبق الاستمارة على الجماعات الصغيرة

(كالاسرة مثلاً)؟ من هنا يأتي دور تقنية المقابلة التي تسمح اكثر بالتدرج النفساني في طرح الاسئلة، كما تسمح بتطبيق الملاحظة خلال وضعية التقابل، مما يعطينا تفاصيل حيوية وحركية تفصيلية تنبىء عن مدى تأثر وتقبل الفرد لمحيطه وواقعه الاجْتماعي.

٢ ـ المقابلة: L' entretien

٢ ـ ١ ـ أنواع المقابلة:

يمكن التمييز بين عدة انواع من المقابلات (مقننة- عيادية- بؤرية)

(المقابلة غير المقننة هي التي لا يعد لها الباحث مسبقاً ـــ جو ـــ حديث اجتماعي ـــ دراسات استكشافية- انتربولوجية).

(المقابلة المقننة ـــ تحوي على استمارة فيها اسئلة محددة يتقيد الباحث بحرفيتها ..)

(المقابلة العيادية ـ تشخيص مرض او وضع اجتماعي والبحث عن حلول او اقتراحات).

(المقابلة البؤرية ـــ تجمع معلومات حول موقف معين).

٢-٢ خطوات المقابلة :

١- تحديد موضوع المقابلة واعداد الاسئلة العامة حولها.

٢- تحديد موقع وزمان وافراد المقابلة (كيفية المقابلة ـــ اين ؟ زيارة ....)

٣- توجيه الاسئلة (باحث او مساعد) في اطار جوّ من الراحة وربما الصداقة - البدء باسئلة مبسطة الخ.

٤- عدم تفسير الاسئلة مما يؤدي الى تباين. عدم الاجابة عن المستجوب.

* تتناسب المقابلة مع المجتمعات النامية حيث تكثر المشاكل (التعليم ومشاكل الاطفال) ويمكن ان تساعد في طرق ابواب غير معروفة.

- ان نتكلم - يعني ان نجعل الآخر يتكلم: والمقابلة هي تقنية أساسية لكنها غير معروفة بمبادئها المنهجية ويطغى عليها طابع الـ -in terview أو المقابلة الصحفية رغم اختلافها عنها.

ما هو موقعها في علم المنهج (وفي الاستقصاء؟) ما هي اواليات سيرها ؟ كيف تكون مجدية؟ تلك هي مشكلة نجاحها او فشلها، ذاتيتها او موضوعيتها وهي بذلك يمكن ان تتداخل مع تقنية الملاحظة، كتقنية يمكن تطبيقهافي نفس وقت تطبيق المقابلة نفسه، فلا يكفي اذاً الانصات، بل المشاهدة والرصد شرط معرفة كيفية الانصات وكيفية الرصد.

٢-٣ تعريف :

تنتسب المقابلة الى مجموعة السلوك الشفاهي (الكلامي) الذي يسميها D. H. Hymes (1968) -événements de parole والتي عرفها تقليدياً بأجزائها destinataire, message, Canal, Code, contenu وتستعمل في كثير من الاحيان في العلاج النفسي، ومن مشاكلها الذاتية :

A ____________ B
Information

المقابلة هي مجموعة اسئلة موضوعة وتُسأل عبر الباحث A الذي يجمع الاجوبة التي تؤلف حديثاً مقطعاً وغير مستقيم تماماً.

اما اجوبة B فهي نتاج حديث يكون حصيلة الواقع والوضعية. يمكن ان نقوم بعلاج سريع معه بهدف المعرفة الموضوعية لمشكلة ما ضمن اطار معرفة اجتماعية اتصالية ونقدية.

- ان المقابلة هي بين شخصين Intervieuver وتقاد وتسجل من قبل الباحث صاحب هدف معين مسبق، وهو الذي ينسّق حديث مبحوثه حول فكرة محددة في اطار بحث ما.

- تدرس المقابلة (افعالاً سابقة- تشكيلات اجتماعية- النظام القيمي).

وهي من حيث المنهج تقنية او آلة جمع المعطيات، ولمعالجة هذه المعطيات يجب التوجه نحو تحليل المضمون.

- إنها تقنية تتجاوز الاستمارة وتحاكي افكار المستجوب مباشرة .

- إنها عملية اتصال ينتج عنها وضعية اجتماعية Situation sociale تحدد مجموعة الميزات الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، المهنية ، العمر، الجنس، للمستجوبين les interlocuteurs ومن ثمّ وضعية نفسانية(ميول المستجوب، سلوكه، انفعالاته الخ...).

٢ ـ٤ تاريخية سريعة :

حدّد G. Leclerc سنة ١٩٧٩ كلمة مقابلة بالـ interview وتأتي من كلمة entrevue، التي هدفت في عصر النهضة إلى الاتصال والحوار

بين شخصين اثناء وضعية متساوية. وكي تصل المقابلة الى موضوعية مبتغاة، يجب استخراج التعددية، نقاط القوة، السلطة، الرفض.. او ان يكون المستجوب من جنسٍ آخر.

كان من الممكن ان يحدث صراع ناجم عن الاتصال مع الشخص الآخر اثناء المقابلة، الاّ ان المقابلة تطورت مع تطور العلوم النفسية والعلاجية فطالت الوضعية والموقف وابتعدت عن اللقاء المبسّط.

* يمكن للشخص ان يخاف من التسجيل، كما يمكن للمستجوب ان يفرض انظمة وعلاقات خاصة به ويبرم عقداً مناسباً لتوقعاته ويعمل على خلق جو حميم او يسهل دخول الآخرين (الاولاد والجيران على سبيل المثال)، ويخلق مشهداً عاماً يخرج عن اطار الكلام الحميم .

٢-٥ الاتصال Communication

هناك "عقد" اتصال يُعرّف بمقابلة البحث كمجموعة المعارف التي يتقاسمها المستجوبون حول مواضيع واهداف الحوار. وهذه المعارف من نوعان explicites و implicites ويتساءل المبحوث لِمَ هذا البحث؟ ولِمَ انا بالذات؟ لذا على الباحث تطمينه وتعريفه بالبحث والمشروع بالعقد "Contart". انه استخراج لفعل اللقاء.

ويمكن ان يعطي المستجوَب اجوبة مخيبة لآمال المستجوِب؛ فالمقابلة هي اذاً شكل حوار اجتماعي تخضع لقاعدة الديمومة وتركّز على حيوية الباحث او المستجوب فيميل كل مداخل، وتبعاً لشخصيته

ولتكونه النفسي، لاستعمال نوعٍ من المداخلات والمواقف التي تختلف عن غيره.

أ- انواع المداخلات

يمكن ان نقوم- اثناء المقابلة- بـ Consigne- commentaire شروحات – ملاحظات – اسئلة تخص داخل المستجوب. وكل هذه يجب الوقوف عندها لمعرفة كيفية الاستيضاح والتساؤل .

من هذه المداخلات:

١- Complementation هي كل مداخلة تأتي لتزيد عنصراً للتماثل والتماهي المرجعي للمستجوب. هي اعتراف مرجعي: و يجب على الباحث ألاّ يعطي وجهة نظره الخاصة، بل عليه الاصغاء والاستماع.

٢- interpretation تعبير عن موقف للمستجوب غير خارجي أو ظاهري ويمكن ان يخلق نتائج غير حميدة تطال المعنى ويمكن الانكفاء على الذات بعدها والمقاومة، فالمستجوب غالباً ما يقبل بكل ما يناسبه ويؤاتيه .

٣- Question sur le contenu ــــ مثلاً السؤال عن وضعيات محددة جرت، واسبابها وشرحها بالتفصيل.

٤- Question Sur l'attitude ـــــ ؟ وهي تتمحور حول آراء وافكار ومواقف المستجوب.

٥- الصدى، وكل مداخلة تعيد او تبين مقولة مرجعية لحديث المستجوب: هي اعادة شيء قاله الآخر لنؤكد اننا فهمنا او سمعنا، لكن هذا الانتقاء هو الذي يقلق وهو انتقاء دفاعي ربما اعتبره المستجوب ضده كما أن كثرة استعماله تقود المقابلة لوضعية اصطناعية يمكن ان تؤدي الى الخضوع او الى المقاومة .

٦- الأثر والتأثير، كأن نعيد بناء مشاعره وان نسأله بحكم كالقول :

" هل تعتبر انهم كانوا مقدامين"، " هل تفكر انهم كانوا على حق"؟.

٧- كمية التساؤلات المطروحة التي يمكن ان تقلق زيادتها سير المقابلة وهذا ما يحدث مع المستجوبين غير المتمرسين.

- في حوار فعال، تعني كل مداخلة اعطاء جواب من الآخر الذي يقوم او يحول قسماً من المشروع، لخدمة مشروعه الخاص.

الخطوات التالية : التي يمكن ان تتبع المقابلة تحليل المضمون دينامية العصمة - دراسة الحالة- التقنيات الاسقاطية- تحديد الباحث للإتصال ونتائجه (عبر فرضيات) سلوك المقابلات ويجب ان يضع امامه حدود المداخلة كي تصبح مجدية وفعالة في ما خص نسق التفاعل الكلامي فيها.

كلها تقنيات مساعدة تهدف الى معرفة مدى تأقلم الفرد مع واقعه الاجتماعي.

وكميدان تطبيقي لهذه التقنيات سنأخذ شقاً ميدانياً نسلط الضوء عليه وهو ميدان الارشاد والتوجيه في المدارس اللبنانية.

وبالفعل، فإن معظم شبابنا يشعرون بالحيرة إزاء المستقبل ولا يعرفون تحديد المجال او المهنة التي تتناسب مع قدراتهم من جهة، ومع سوق العمل من جهة اخرى، والمأساة اليوم ليست في ايجاد مكان في الجامعة لمتابعة التحصيل العلمي فحسب؛ بل بتحديد الحاجيات الحالية والطارئة وبلورة شخصية الطالب للحصول على افضل ما عنده وفي القيام بالإشراف على متطلباته النفسية، ليس بهدف ادخاله فقط في اطار القوى العاملة في المجتمع بل في مساعدته لرفاهه ولصحته النفسية كي يتغلب على مشاكل العصر بدءاً بالأسرة والمدرسة.

الفصل الرابع

التوجيه والارشاد النفس ــ اجتماعي في المدارس اللبنانية

التوجيه والارشاد النفس - اجتماعي في المدارس اللبنانية

- تنطلق مشكلية هذا الفصل من عدم ايلاء المدارس عامة في لبنان لمثل هذا النوع من الارشاد او استبداله لدى البعض الآخر بدوائر وليدة الساعة وإبنة الحاجة الحالية دون اي تخطيط او سعي حثيث للديمومة والاستمرارية . وبذلك يكون هذا البحث جزءاً من مشكلة تربوية ونفسية آنية لوطن ما بعد الحرب . هي مشكلة تطرح على بساط البحث مدى تقبّل الناس في بلادنا أو المحلل النفسي، ومدى ضرورته كصديق مستمع ومساعد لحل بعض الوضعيات الصعبة او المعقدة .

ان الفئة الكبرى من مجتمعنا لا تزال تجهل اغراض العلوم النفسية ودورها في الحياة العامة وفي الحياة المدرسية على الأخص ؛ ذلك ان الكثير ينفر او يرتبك لدى سماعه كلمة محلل او معالج او اخصائي نفساني، لأن اسم هذا الاخير يقترن بالشذوذ والانحراف.

١- واقع ووضعيات الارشاد النفس - اجتماعي في لبنان

١-١ على الصعيد الرسمي الحكومي

حصر رئيس الديوان المسؤول عن المدارس الخاصة والرسمية في وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، وفي مقابلة اجريت معه سنة ١٩٩٠،(وهو بمثابة رئيس للجهاز الاداري في الوزارة) واقع الارشاد في لبنان بمشكلتين اثنتين:

أ - واقع الحرب الاهلية اللبنانية الذي منع تنفيذ اي مرسوم دعت الحاجة لاصداره. فالوزارة ومنذ العام ١٩٧٠ بدأت تكتشف الحاجة لأخصائي اجتماعي، لكن الحرب فرضت معالجة الافضليات (كفاءة الاستاذ - اتمام النقص المدرسي الخ ..)

ب- استقلالية المدرسة الخاصة في لبنان وعدم خضوعها للمراقبة باستثناء تطبيق المناهج الرسمية والخضوع للامتحانات الرسمية .

لقد وعت اليوم وزارة التربية دورها الطليعي في هذا الميدان خاصة تعزيز الدور النفساني في المدارس بغية تخريج افواج من الطلاب والتلامذة ، وأُصدر مرسوم في بدايات العام ١٩٩٥ بتشكيل "مديرية الارشاد والتوجيه" في الوزارة (L'orientation pédagogique et sociale) وهي مديرية في طور التشكيل والاعداد، تهدف لدرس العملية التربوية ككل (استاذ /تلميذ/ اسرة) ولم تتبلور حتى الآن بنيتها، وهي بصدد استعارة اساتذة من ملاكات اخرى وتصنيفهم كمرشدين تربويين.

١-٢-على الصعيد الخاص:

في المقـابلات الميـدانيـة التي أجـريت مع الكثـيـر من المدارس الخاصة ، تم التركيز على وضعية الحرب التي منعت المدارس من تنظيم هيكليتها بشكل تفصيلي والتي كانت سبباً مباشراً في ايجاد سلوك منحرف او غير سوي او معقد لدى التلامذة.

فكانت الحلول الآنية وقتذاك ، كالاستعانة بموجه غير اخصائي يمكن ان يكون دوام عمله كاملاً في المدرسة وبصيغة استاذ او منسق أو ناظر الخ .. (ونتساءل عن صحة العلاج والحلول المتبعة؟) .

هذه الحلول لم تتغير كثيراً حالياً ، وربما أخذت منحى آخراً لكنه كان دائماً غير جذري ، كالاستعانة بأخصائي (ربما تتعاقد معه المدرسة صورياً) خارج المدرسة وهو أمر مكلف لا يمكن ان يتحمله كافة أولياء التلامذة .

وربما تواجد الاخصائي النفسي ، لكن تواجده يبقى في اطار المحاولة غير الجدية التي لا تمسّ الحالة بتفاصيلها ولا تتابعها بمشاريع وأهداف تصل الى حدّ الشفاء.

لقد أجمع الكل على ان مرحلة ما بعد الحرب يجب ان تركز على تواجد الاخصائي، مما يزيح الكثير عن كاهل المدرسين، ويساعد في اكتشاف الحالة المعقدة قبل ان يستفحل الامر .

ويمكن تصنيف المدارس اللبنانية كالتالي :

أ- المدارس التي لا يتواجد فيها أخصائي ويحل محله التربوي -

الاكاديمي ، وهذه أغلب حالات العينة المستجوبة (وهي مدارس فئة أولى في لبنان) .

ب - المدارس التي يتواجد فيها الاخصائي لكن دوره لا يتعدى الابهة والمظهر، للترويج للمدرسة (وهي مدارس مصنفة في الوسط وتقوم على أشخاص وليس على مؤسسات).

ج- مدارس لا تطرح فكرة الاخصائي ولا البديل عنه وما تزال فكرة المعالجة لهذا الموضوع معالجة غير جدية وعميقة (المدارس الرسمية) .

٢ - ما هو التوجيه النفس - اجتماعي :

ان الخلط جارٍ في استخدام المصطلحات في هذا المجال ، فالخلط حاصل ما بين الارشاد والتوجيه من جهة والتدريب من جهة أخرى ، كما هو خلط ايضاً بين التربوي والاجتماعي والنفسي .

ان للتوجيه والاشاد لغوياً، معنى الادراك والهدى (ارشد إرشاداً اي رشد الغلام الى كذا ... وجه توجيهاً ، أي وجّهه اليه وجعله يتجه اتجاهاً واحداً) ، أما التدريب ففيه صفة التعلّم والتمرين .

كما ان التربوي والنفساني هما صفتان او مستويان في المستوى الاجتماعي الكلي، لكن للنفساني صفة الفرد الذي لا بد ان يكون في اطار جماعة ما، فلا بد ان يكون هذا التوجيه والارشاد توجيهاً وارشاداً نفس - اجتماعيين (تهيئة الفرد نفسياً ، لذاته، وتهيئته للوظيفة

الاجتماعية) ، ودائماً في اطار عملية تربوية هادفة وشاملة لا تقتصر على المنهج والكتاب .

من جهة أخرى، تميّز اللغة الفرنسية ما بين التوجيه التربوي، التوجيه المهني، التوجيه الزوجي، التوجيه النفسي المدرسي ..

ومهما يكن فإن الطفولة هي المرحلة الاهم في حياة الانسان ، ويمكن ان تعترضه خلالها مشاكل منزلية – أسرية ومشاكل مدرسية .

من المشكلات الطفولية المنزلية : الخوف – التبوّل اللاإرادي – مص الاصابع وقضم الاظافر – النوم – مشكلة الاكل وفقدان الشهية – الغيرة – العصاب – الاتكالية – الفشل – العصبية .. – العدوانية – التمرد الخ...

من المشكلات الطفولية المدرسية : التأخر الدراسي – صعوبة النطق – الكذب – السرقة – التخريب – العناد والتمرد الخ ..

هذا ما يطرح مشكلة الصحة النفسية للاطفال، ويطرح معها نسبية هذه المسألة (هي دلالة على قدرة الفرد على التكيف مع نفسه ومع البيئة التي يعيشها وكله مرتبط بتكوينه النفسي) . فالانسان معرض في كل مرحلة من مراحل نمو حياته ، لمواجهة المشاكل التي يجب مواجهتها وحلها كي يتمكن من حل مشاكله اللاحقة .

وعليه فانه – أي الارشاد –مجموع الخدمات التي تهدف الى مساعدة الفرد على انه يفهم نفسه ومشاكله، وأن يستغل امكاناته الذاتية والبيئية فيحدد أهدافاً تتفق مع هذه الامكانيات (القدرات –الميول

-الاستعدادات المحيط الاجتماعي الخ)... الهدف هنا هو حل المشاكل حلولاً عملية بحيث تؤدي الى تكيف الفرد مع نفسه ومع مجتمعه "فيبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه من النمو والتكامل في شخصيته ...".

يقوم التوجيه النفس- اجتماعي في المدارس اذاً ، على مساعدة التلاميذ وتوجيههم بهدف الوصول الى توافق في سلوكهم وتمكينهم من فهم أنفسهم ومجتمعهم بهدف التكيف مع هذا المجتمع لبلوغ الاهداف المرجوة . انه عملية متممة للمناهج المدرسية تؤدي الى ازدهار عملية التعليم وتحقيق أهداف المدرسة وتكوين اسرة صالحة .

٦ ـ صفات الموجه النفس - اجتماعي

ينظر الى الموجه او الاخصائي النفس - اجتماعي على انه من أهم أقطاب المدرسة الحديثة ، فهو المنسق والمحرّك لجميع الفعاليات التربوية داخل مؤسسة المدرسة وخارجها . لذلك يُشترط توافر عدد من الميزات في شخصيته ، وهو تماماً كالمحلل الذي يجب ان يتجاوز الكثير من المواقف ويُختبر في هذا التجاوز كي يحصل على شهادته المهنية نهائياً.

عليه ان يتسم باللين والهدوء (هدوء الاعصاب)وحسن الاصغاء والاستماع، فعليه مثلاً في النقطة الاخيرة ان يتابع محدثه ويهتم بما يقوله دون ان يقاطعه ، وان يترك له الحرية للتعبير عن افكاره ومشاكله وتفهمه وتشجيعه مما يسمح للتلاميذ بالاعتراف اليه بمشاكلهم، وهذا ما يدعَم الثقة به ، كما عليه ان يعرف كيف يستخرج لاوعي التلامذة ، كل

ذلك مع الحفاظ على أسرار الجلسات الخاصة وعدم جعلها موضوعاً متداولاً...

يجب ان يكون حيادياً مع معرفة في كيفية الاجابة على الاسئلة عبر سرعة بديهة . كما يجب عدم اللوم كي يخفف عندهم الشعور بالذنب والابتعاد عن الوعظ والارشاد .

كما عليه ان يتصف بصفات مهنية كالالمام بوضعية المدرسة وطرائق التدريس والبرامج ، والكتاب المدرسي . وعليه الا يحصر عمله داخل المدرسة بل خارجها لتوعية الاهل وتثقيفهم ، وايجاد لقاءات متبادلة معهم ومعرفة كيفية تركيبة أسرهم وأوضاعها من "أجل تنسيق واسع ربما يشمل السياسة التربوية والاجتماعية لبناء مجتمع مدني سليم".

ونذكر ان تنمية الملاحظة بهذا الخصوص أمر مهم جداً لانها أساس لجمع المعطيات ومعالجتها لاحقاً ، كما ان الاطلاع على العلوم الاحصائية والمعلوماتية ضروري. ويحسن به اللجوء الى التجارب ، كإجراء الاختبارات والقياسات والروائز والاستمارات والمقابلات، مع التذكير بأهمية اختيار الوقت المناسب.

ويمكن الا تتوفر في المدرسة المستلزمات العلاجية تبعاً للحالة ، فيمكن عند ذاك الاستعانة بأخصائي آخر في عيادته ، وهي خطوة يجب التريث لها والتروي قبل الاقدام واطلاع الاهل عليها .

نحن في مسيرة السلم والاعمار نتوجه فقط للاهتمام بالتخلف ونهمل التفوق مثلاً والابداع ، كما نهمل الارشاد ونهمل معه الصحة

النفسية وذلك باهمالنا مواجهة او على الاقل معرفة ما يواجهه اطفالنا في مدارسهم ، وعليه فان غياب الموجه النفس – اجتماعي (حامي الصحة النفسية وموعي الاهل) هي مشكلة قديمة ولم تكن فقط وليدة الظروف الحالية .

٧ ـ اقتراحات :

سنصنّف اقتراحاتنا ضمن ثلاثة محاور :

مهنية تخص تنظيم المهنة والاختصاص – مدرسية تخص مؤسسة المدرسة وتهيئتها لاستيعاب هذه المهنة – أسرية تخص مؤسسة الأسرة ودور الاهل في تقبّل المهنة .

أ- اقتراحات مهنية :

اذ نتساءل كيف يجب ان نعد الموجِّه ؟ نجيب ان للجامعات دوراً كبيراً يمكن ان تلعبه في اعداده وتدريبه لمثل هذا الاختصاص ونركز هنا على كليات واقسام علم النفس ودورها في سوق العمل ... وذلك باعداد برامج خاصة يمكن ان تساعده في الوقوف على ميول واستعدادات التلاميذ (دراسة المتفوقين ووضعياتهم..). إعداد دورات تدريبية عملية لتدريب علماء النفس الاجتماعي . كما ان للجمعيات الاهلية دوراً يمكن ان تلعبه في التدريب والاعداد وتقديم حلول جانبية للاسرة -للمدرسة وللاختصاصيين. وعلى المدارس الاصلاحية العمل على شطب ذلك التصور الخاطئ للعلاج النفسي في اذهان الناس والاهل ، ويجدر تعزيز

وسائل الارشاد (ابحاث نظرية – اهتمام بمراحل الطفل ومتابعة الاستمرارية في العلم دون الانقطاع ، مراقبة الحدث وتطوره ، تعزيز وضعه الوظيفي واستقلاليته ، احترام اسئلة الطفل وعدم اهمالها والاجابة عليها اجابة صحيحة) .

ب- اقتراحات مدرسية :

للاستمرارية في العمل دون انقطاع ولمراقبه الحدث وتطوره ، يجب السعي الى ادخال الفكرة الى المدارس ، وربما تلت لاحقاً ادخال العيادات التربوية النفسانية لمعالجة اوضاع الطلاب والتلاميذ : المتأخرين في دروسهم او العدوانيين او المنحرفين، وعليه فان الحاجة مطلقة لايجاد جهاز تربوي يتواجد في المدرسة وعلى رأسه علم النفس، وبدونه لا يمكن متابعة العلاجات والحالات ومراقبة النتائج. ولوزارة التربية دور تشريعي هام في هذه المسألة ، كما للمدرسة الخاصة . فعندما تعمم هذه المسألة وتعتمدها ، عليها ايجاد صلة بين الاخصائي والمدرس ، مدرس الصف، وهي علاقة لا تقل أهمية عن العلاقة مع الاهل وتنظيم الاجتماعات الدورية معهم وبحضور النظار ، ويحبب السماح له بالاشتراك بكافة الاجهزة الادارية والتعليمية (نظام قبول التلاميذ -الكتابة – التنسيق – توزيع التلاميذ على الشعب – القيام بعمليات مسح سيكولوجي عام وخاص كي تتحدد امامه المشكلات ، والمساعدة على نشر ما توصل اليه من استنتاجات في كتب او نشرات تهتم بهذا المجال او ضمها لنشرة المدرسة كي يطلع عليها الاهل والمدرسون والتلامذة انفسهم ممايساعدهم على فهم واقع : لكل مشكلة حل..)

ج - اقتراحات أسرية :

تخص الاهل وتساعدهم على تقبل الفكرة، واقامة ندوات توعية لهم وعرض الافلام التي تعالج موضوعات تربوية تجري احداثها في المدارس (يجب ان يليها نقاش).

ان الغاية هنا ، هي تزويد مجتمعنا بخدمات الرعاية النفسية المدرسية حيث تبرز الحاجة لتواجد خبير - مرشد لا يكون مصدراً للتباهي والتفاخر ، بل يقوم بدور الوسيط الفعلي بين المدرسة والاهل لتحقيق صحة نفسية سوية للتلاميذ، وهذا ما يعود بالمنفعة ليس فقط على مؤسسة الاسرة، بل على مؤسسة المدرسة أيضاً . ولوزارة التربية دور التخطيط لمثل هذا المركز وتحديد اهدافه والسهر على تنفيذ هذا الامر في المدارس الرسمية والخاصة على السواء .

فهل الواقع هو واقع مأساوي ؟ أم هو واقع كمالي ؟ أم انه أمر وطني واجتماعي وانساني لفرد او لطفل ما بعد الحرب ؟؟ .

٣ - التقنيات المتبعة:

وسنقسمها الى قسمين:

أ- تقنيات التوجيه الاجتماعي.

ب- تقنيات البحث.

أ- تقنيات التوجيه الاجتماعي(والمهني).

طالما ان علم النفس المدرسي هو علم يتكوّن حالياً (في طور التكوين)

في بلادنا ؛ فاننا يمكن ان ننوّع طرائق المقاربات العلمية.

ولقد اثبتت طرائق اللهجة الخطابية الاستاذية cours majistal فشلها، فالمعلم عندما نهيؤه جيداً، يتعاظم دوره في العملية التربوية ويكون دور مهيء للتلميذ بحد ذاته ، ويجب ان يتهيأ المعلم اذاً لتعويد التلاميذ على عمل الجماعةtravail des groupes وعليه هو ان يتعود على سماعهم ، على نقاشاتهم (جماعة ثم افراداً). وان تكوين الاستاذ او المربي تكويناً نفسياً – تربوياً هو المدخل الاول لسيادة التوجيه الاجتماعي.

وعملية الانتقال من الجماعة الى الفرد هي عملية مهمة جدا يجب ان يبدأها الاستاذ وينهيها الموجه الاجتماعي ، ويجب ألاّ يتعارض عملهما، بل ان يتكامل ، والنظرة بينهما يجب ان تكون نظرة تآزر لا نظرة عداء . لذلك فان التعوّد على القيام بتقنية الملاحظةl'observation، ضمن شروط عدم التأخّر والمثابرة والتعميم على جميع التلاميذ هي البداية ، هي اولى التقنيات المطلوبة.

ان خصائص هذه التقنية متعددة ، الا انها تسمح وبالدرجة الاولى بالاختبارات الفردية السريعة التي ترصد نمو الفرد وتدخل مباشرة في الحياة التربوية للصفوف، وتصل الى درس الوسط الاسري، العائلي للتلميذ وهنا نصل بالتدرج الى التحليل النفس- اجتماعي بعد ان كنا قد بدأنا بالتحليل التربوي.

إن ملاحظة الاستاذ يجب ان تنفصل عن ملاحظة الموّجة كي نصل الى فعلٍ تربوي نفساني يساهم في انجاح العملية التربوية .

فالفعل الافضل هو عمل الفريق Travail d’équipe.

بعد الملاحظة- واذا اردنا التسلسل - نصل الى المقابلة التي نفضل أن تكون مقابلة نصف موجهة، ويمكن ان نقوم بها مع التلميذ، ونقرر على ضوئها وعلى ضوء الملاحظة التي سبقت والمعلومات التي حُصدت، مسألة استدعاء الاهل ومقابلتهم بهدف معرفة واقعهم عن كثب ومعرفة اجواء ومحيط التلميذ الاسرية التي تقولب سلوكه، ولا ننسى ان الزيارة ضرورية - وهي ضرورة يحددها الموجه - لمزيد من التفاصيل بهدف ايجاد نوع من التعاون ما بين مجتمع المدرسة ومجتمع الاسرة.

واذا كنا قد ركزنا على اهمية التعاضد ما بين الاستاذ والموجه وضرورة التهييء لها من قبل كافة العاملين في المدرسة(كفريق متكامل: ناظر- مدير - منسق الخ..) فان التركيز على ذلك التعاضد الآخر الذي يجب ان يتم بين المدرسة (بشخص الموجه فيها) وبين الاسرة (محيط الولد الأول) هو تعاضد لا يقلّ اهمية عن الاول بل انه ميدان عمل الموجه الاجتماعي. ولا ننسى ان تقنية الاستمارة هي من التقنيات التي لا يمكن اقصاؤها، هي مرحلة من مراحل التوجيه الاجتماعي التي يجب ان تُضمّ الى ملف كل تلميذ... انها مرحلة توثيقية تجمع معلومات سوسيولوجية عن التلميذ وعن وضعيته الاسرية بتفاصيلها (مركز الاب والام الاجتماعي - وضع الاخوة والاخوات- درجة التحصيل العلمي الخ..) ووضعيته المدرسية (تحصيله العلمي- تسجيل شكاوى في حال حدوثها - مستوى الذكاء عنده: وهنا يمكن وضع نتائج

الاختبارات في حال استعمالها -رأي المدرس الشخصي- علاقاته مع تلاميذه)، ويُترك حيّز لملاحظات الموّجه.

كما أن تقنية الروائز والاختبارات الإسقاطية هي تقنية مهمة لتحديد شخصية التلميذ ودوافعه النفسية وميوله، وكلها تقنيات يجب ان تطبق من قبل المرشد بنزاهة وحيادية مطلقة neutralité وبصدق وسرية (نشدد عليها)، على الموّجه ان يتابع الحالات التي تصادفه او تطرح عليه، وان يعتبر التقنيات السالفة الذكر تقنيات مساعدة لتقنية اساسية هي دراسة الحالة étude de cas و . استعمال التقنيات هذه هو استعمال بحاجة إلى تدريب تمرين كي نحصد نتيجة فعالة ، من هنا فان ما يطبق حاليا في مدارسنا في لبنان بان ينوب شخص آخر عن الموّجه الاخصائي وان يحل محله يمكن ان يزيد المشكلة تفاقما بدل ان يكون حلاً لها .

كما ان ارسال التلميذ الى اخصائي خارج المدرسة يفقد العملية التربوية شموليتها وبالتالي يقلل فرص نجاح العلاج لافتقار الاخصائي الى المعلومات الكاملة والى معرفة دقيقة بالطاقم التعليمي وبالوضعية التعليمية على الارض (ولدينا بهذا الخصوص حالات مفصلة عن هذا المنحى الخاطىء).

ب- تقنيات البحث:

اعتمدنا في بحثنا على تقنيتي: الملاحظة والمقابلة.

ولقد عالجت الفصول السابقة هاتين التقنيتن وتفاصيلهما التي يمكن ان يضاف اليها تقنية دراسةالحالة.

٤ - نظرة تاريخية:

لا تأتي النظرة التاريخية هنا من قبيل التكرار أو التقليد السائد بل للاطلاع سريعا على تطور فكرة الخدمة او العمل الاجتماعي وللوقوف على بعض اهم مطلقي العمل النفساني التربوي.

ان مبدأ الخدمة الاجتماعية بمعناه الواسع، لا بدّ ان يصل الى هدف الحماية والمساعدة والوقاية. وقد بدأ ضمن التعاون الانساني من جهة الغني نحو الفقير. وهو من اقدم انواع او اشكال الحماية الاجتماعية .

عندما اندلعت الازمة الاقتصادية (في ت١ ١٩٢٩) حدث تغيير شامل في مجتمع الرعاية الاجتماعية في اميركا، خاصة بالنسبة لمساعدات الفقراء، ولم يتوفر الاخصائيون الاجتماعيون العاملون في مؤسسات المساعدة العامة، فتبين للقائمين على جمعيات تنظيم الاحسان والخير ان المساعدات الحكومية للفقراء لا يمكن ان تعتبر علاجاً للاوضاع الاجتماعية السيئة، ويجب تحويل الجهود لتقويم سلوك الفرد المنحرف الذي انحدر الى "رذيلة الفقر" فبدأوا بعمل تطوعي يلجأون فيه إلى الزيارات المنزلية والمقابلات الشخصية، مما أثر على تقدم في تفسير اثر البيئة الاجتماعية وانعكاساتها على الفرد. وقدموا اعمالهم للجان ممثلة لمنظمة الرعاية التي فشلت في عملها باعتباره اعتمد فقط على المساعدات الخاصة غير الحكومية...

الا انه، وبعد توقيع الرئيس "هوفر" قانون الاغاثة سنة ١٩٣٢ بدأ مفهوم خدمة الفرد بالتطور نتيجة الدراسات الميدانية في الانتروبولوجيا وعلم

السلوك والجماعة، على ان تشمل الجهود كافة اعضاء الأسرة. الا ان الاتجاه الابوي ساد العلاقة التي جمعت بين الاخصائي والعميل.

في سنة ١٩١٧، بدأ الاتجاه نحو التشخيص الاجتماعي والتركيز على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والاسرية، كما تقدّم علم النفس في دراساته حول نمو الطفل واكتشاف اختبارات الذكاء (S. Hall Binet et simon - Bodard) وانتشار مفاهيم التحليل النفسي وتطور النظريات لدينامية الجماعة والتفاعل معها الخ...، كلّ ذلك أثّر على الاخصائي الاجتماعي الذي بدأ بدراسة التاريخ الاجتماعي لحياة المريض وظروفه الاسرية ووجدت التبريرات لسلوك العميل في ضوء العمليات الدفاعية كالتبرير والاسقاط والتعويض والنكوص والتمويل والتوحد وغيرها... فأصبحت خدمة الفرد تهتم بتنمية قدراته والتسليم بقدرته كانسان وتقبله كما هو مستخدمين نظريات متعددة وتُطبق جوانب مختلفة من مدارس علم النفس في العمل، ويُعمل حالياً على تركيب سيكولوجي يوفق بينها مما يساهم في تطوير مبادىء الخدمة الاجتماعية.

في هذا الوقت تطورت فكرة المدرسة التي أصبحت للجميع وليس لفئة من الناس، وكان لا بد لها من التنسيق مع المنزل حيث مجال التنشئة الاول للاطفال؛ اذ تبدأ منذ اللحظة الاولى تأثيرات المنزل بسلبياتها وايجابياتها على الطفل مما يجعل المدرسة تحصد ثمار هذه التربية (التي لا بد لها ان تبدأ بالمنزل)، وللمدرسة دور يأتي ليكمل دور المنزل فهي التي تزود النشىء بالمهارات وعلى عاتقها تقع مسؤولية تحصين الاجيال.

لقد تطور مبدأ الخدمة في العالم الغربي كي يصل الى تحديد في اطار الموازنة الاجتماعية العامة للأمة ، فتصبح معه المساعدة الاجتماعية حقاً للاشخاص المستوفين الشروط المحددة من قِبَلِ القانون.

نعرض فيما يلي للتطور الذي حصل في فرنسا لهذا المفهوم[1]:

- في سنة ١٩٥٣ تم تحديث تشريعي لهذا المفهوم وتبعته اصلاحات قانونية.

-استعمل بعدها الرقم الرمزي ٣ كي يلائم مراحل الاصلاح والتحديث في مواد الخدمة والمساعدة الاجتماعية وكان على التوالي في السنوات: ١٧٩٣- ١٨٩٣- ١٩١٣- ١٩٥٣- ١٩٨٣-١٩٩٣.

ومن خلاله كان يعاد توزيع الكفاءات من خلال وزارة الشؤون الاجتماعية بالتعاون مع هيئة وطنية، نذكر على سبيل المثال:

- المجلس الاعلى للخدمة الوطنية.
- المجلس الاعلى للعمل الاجتماعي.
- المجلس الوطني للمسنين والمتقاعدين.
- المجلس الوطني للمعاقين.
- معهد الطفولة والأسرة.[2]

---

١ - يمكن مراجعة بحث: التوجيه النفس - اجتماعي في المدارس اللبنانية - باحثات - الكتاب الثاني ١٩٩٥ وفيه عرض تفصيلي لتطور هذا المفهوم.

٢ - B. Andrey' la psychologie à l'école p u.f. paris 1474.

وكان اندلاع الحرب العالمية يُكثر من مسألة البطالة ويجبر هذه الهيئات على اعادة تخطيط سياسة التوجيه المدرسي والمهني (وكان رائدها (H.Pieron). وقد نادى H. Wallon عالم النفس الطفولي بأن علم النفس غير منفصل عن المدرسة ، وتأسس معهدclaude-Bernard كأول مركز نفسي- تربوي راعى الصحة النفسية للأطفال.

نستنتج من ارتباط القوانين بالمؤسسات وبمجموعة العمل، وهو ارتباط متأثر بوضعية النضوج الاقتصادي الاجتماعي.

اما فيما يخص مساعدات الطفولة فقد تطورت من مفهوم «الاطفال المساعدين» الى مفهوم«المساعدة للأطفال» وهو اعم واشمل، الى ان اصبح اخيراً«الخدمة الاجتماعية للطفولة[1]»، وادخلت مع المفهوم الاخير التقنيات التربوية والنفس – اجتماعية الحديثة.

وطالما نحن في اطار الحديث عن التوجيه الاجتماعي الذي عنيناه شاملا، والذي يظهر منذ المراحل الاولى داخل مؤسسة المدرسة ، يمكن ان نعرض سريعاً لأهم منظري هذا التيار الذي تأثر مباشرة بالتحول الذي شهده العالم الغربي من الزراعة الى الآلة.(monde agraire -monde mach-inisme).

ويمكن القول ان نهاية القرن التاسع عشر كانت انطلاقة لهذا التيار حيث تزايدت الاحتياجات وتبدلت المواقف معلنة ركائز حقيقية لعلم النفس المدرسي.

---

١ – انتقال المفهوم من الخاص للعام، تاكيداً على الشمولية التطلع والخدمة. كما انتقل من التطوع إلى الوظيفة والاختصاص.

في سنة ١٨٨٤ انشــأ F. Galton مـختبرا نفسيا في بريطانيا العظمى ثم عــمل W.MacDougallعلى مـشـاكل التكيف. الا ان نقطة البداية كانت في بريطانيا حيث ولدت هيئة تعنى بعلم النفس المدرسي فلحـقـتـها الدول الصناعـية الأخرى وضـمن التوجـه نفسـه ، فكثرت المجلات والنظريات التربوية للذكاء وشهدت تطوراً مهماً في هذا الحقل.

٥ ـ ميادين التطبيق:

إن الدراسات الميدانية المتكررة وبمساعدة طلاب مادة علم النفس الاجتماعي في السنوات الثالثة والرابعة(الجدارة) في معهد العلوم الاجتماعية التابع للجامعة اللبنانية وعلى مدى خمس سنوات اثبتت الوقائع التالية:

أ- لكل مرحلة مشاكلها ، ولا يمكن القول بأننا بحاجة للموجه في المرحلة التكميلية والثانوية(مـراحل سن المرا هقـة) دون ان نأبه بالمرحلة التأسيسية الأولى: الطفولة (وهي مرحلة تهيوء للثانية)[1].

ب- يغيب المرشد او الموّجه غيابا شبه كلي عن المدارس اللبنانية ورغم التحول الايجابي الذي يمكن ان يحصل او ان يكون قد حصل فهو لا يغطي نسبة ٢٪ من المدارس المبحوثة[2].

امـا في من يحل مـحله، فـهو غـالبا مـا يكون الناظر اوالمنسق او

---

١ ـ أما في الجامعة (وحتى في المرحلة الثانوية)، فالتوجيه المهني والاجتماعي شبه غائبين على السواء.

٢ ـ نتساءل عن مدى فعاليته ومدى حسن تدريبه في حال تواجده.

غيره من الاساتذة الذين ربما كانوا قد حصلوا على شهادة في علم النفس العام او علم الاجتماع.

نستنتج عدم ايلاء المدارس في لبنان لمثل هذا النوع من التوجه . يقابله غياب[1] الاختصاص او التدريب في الجامعات.

ونحن نراعي مسألة بديهية مسيطرة في لبنان: هي واقع الاختلاف الحاصل ما بين المدارس الخاصة والرسمية.

ج- واقع غيرمتغير بالاجمال منذ بداية البحث(١٩٩٠) فالحالات متنوعة، والمدارس متنوعة، وفي مناطق مختلفة من لبنان.

د- التكامل غير حاصل ما بين المدارس والموجه- في حال تواجده . ذلك ان مهنة الموجه النفسي- التربوي لا تقتصر على الاختبارات او المقابلات[2] بل في تحليل الوضعية على ضوء العناصر كاملة ومجتمعة؛ انه تحليل يجب ان يُدافع عنه وينقله للأساتذة وللقيمين التربويين.

ونشير هنا الى صعوبة البحث الميداني في المدارس وعدم تجاوب الكثير منها لاعطاء المعلومات ، وهذا عائد للنقص الحاصل طبعا في الكثير منها اذا لم نقل اغلبها.

ها هي "منال" تدرس وضعية المدرسة المبحوثة سنة ١٩٩١ فتركز

---

١ - او عدم جدية في توجه جذري.

٢ - لم نجد اية حالة يقوم بها الموجه بقياس او باختبار نفسي، وتقتصر المسألة على المحلل او الطبيب النفسي لدى زيارة قصرية له في عيادته اذا استفحل الأمر.

على ادارتها (نظرا لما تلعبه الادارة من دور مهم في تحسين سمعة المدرسة ومستواها العلمي). ودخلت حتى في بعض تفاصيل شخصية المدير.

كما ركزت على وضعية الأساتذة المميزة (خبرة طويلة+ حملة دكتوراه + تأليف كتب تدرس في المدارس الأخرى). ولم تنس اعطاء المعلومات الاخبارية التاريخية والكمية (مساحات الصفوف ، الملاعب ، غرف المعلمات ، غرف الاجتماعات الخ...) لكافة مراحلها.[1]

لقد درست «منال» ولاحظت وضعية المدرسة.[2] وعمدت بعدها الى تقنية المقابلة مع المدير (لمرّتين) ومع بعض الاساتذة ومع اقارب الحالة المختارة.

المشكلة كانت في العجز المادي وفي كيفية تحمل النفقات التي يمكن أن تزيدها عبثا وضعية الموجه الاجتماعي: وقد تحدث المدير عن معلمة أصبحت مرشدة في المدرسة.

س- طالما انك قبلتها كمعلمة؛ فهذا يعني انها لم تكن مرشدة اجتماعية في المدرسة!.

ج- نعم بدأت كمعلمة وفيما بعد صارت مرشدة اجتماعية.

---

١ - كما اعطت رسماً تخطيطياً هندسياً لمبنى المدرسة خارجياً وداخلياً، وهي نقطة مهمة في البحث، نظراً لاهمية الشكل الهندسي وتاثيره على المحتوى والعلاقات ككل.

٢ - ترددت على المدرسة مدة خمسة ايام متتالية مما سمح لها بمراقبة كافة التفاصيل خاصة تلك التي تتعلق بسير الدروس وتلك التي تتعلق باوقات الفرص في الملعب.

س- كيف حصل هذا ويطلب من؟

ج- اثناء قيامها بالتعليم، كانت تبادر دون طلب من احد الى زيارة بعض الطلاب ذوي الحالات الخاصة في منازلهم في المنطقة... كانت تقوم بهذا بدون مقابل وبدون طلب من احد ، حتى انها لم تكن تخبرني بذلك... ثم فرغتها بعدها بمعدل ١٨ حصة اسبوعيا بدل ٢٤ حصة.. لكنها سافرت.[١]"

اما الولد ، ذو الحالة الخاصة المتابع في بحث منال ، فقد كان غير مشبع وبالتالي غير متوازن عاطفيا، ولم تنفع معه هذه التدخلات البسيطة والسريعة من المعلمة - المرشدة (وهي حالة يمكن ان تعمم في مدارس مختلفة).

وقد قامت صباح ببحث مشابه سنة ١٩٩٢ وفي مدرسة تنتمي لنفس فئة المدرسة الأولى (خاصة، تقوم على اكتاف شخص واحد يتماهى بالمدارس الخاصة الكبرى- من الفئة الاولى).

ولقد كان لدى هذه المدرسة موجهّة اجتماعية سافرت في سنة ١٩٧٨ ولم تستبدل بغيرها نظراً للازمة المالية التي تعانيها المدرسة ، وتقوم الناظرة -التي تمت معها المقابلة- بهذه الاعمال وبحلّ الامور الشخصية او الاسرية العالقة:

تبسّمت وقالت : اصبحت انا المسؤولة عن مشاكل التلاميذ، مع العلم ان هذه المسائل غير مطلوبة مني وتكفيني هموم المدرسة ، لكن

---

١ - من مقابلة مع المدير، أجرتها م. سنة ١٩٩١.

محبتي للأطفال اشعرتني بأنهم اولادي. اختار - بغياب المدير في اسفاره- نخبة من الطاقم التعليمي الذي اثق به ونعالج المشاكل سوية»...[1]

وعن سؤال بامكانية رواية بعض المشاكل التي واجهتها:

«ولو يا أهلاً وسهلاً، للحقيقة انه الان ما عندي شيء.»[2]

ودخلت "صباح" و"منال" وغيرهما من الطلاب في تفاصيل بعض الحالات المستعصية او الصعبة وكانت المشكلة تكمن دائما في الحلول السريعة ابنة الحاجة ، دون اي اختصاص اوتفهم عميق للواقع الواعي واللاواعي لصاحب المشكلة، ومن ثم دون اي ربط ما بين التربوي /النفسي والاجتماعي...

وها هي "أغاريد" تقوم بعدة مقابلات للغرض نفسه ومن مدرسة ربما كانت اعرف واقدم من المدرستين السابقتين ، كان ذلك في سنة ١٩٩٢ وكنا جميعا نستنتج في الصف ان اغلب المشاكل لدى الاولاد كانت مشاكل عاطفية بداعي انفصال او طلاق الزوجين، مما يدفع الطفل للعدوانية ، الاضطراب السلوكي مع اترابه، وحتى في احيانٍ كثيرة للسرقة.

---

١ ـ ٢ـ من المقابلات التي قامت بها صباح سنة ١٩٩٢.

١- أسئلة مقابلة مع مديرة المدرسة «الابتدائية»

ا ـ الأسئلة:

١ -هل يوجد مرشد نفسي - اجتماعي في المدرسة؟

٢ -هل هو مسؤول عن كافة مراحل التعليم في المدرسة؟

٣ ـ لم لا يوجد مرشد نفس- اجتماعي؟ من أو ما هو السبب في ذلك؟

٤ - من هو البديل عنه؟

٥ - من ينظم له عمله؟

٦ - هل عمله يأخذ شكل الاستمرارية والدوام؟

٧ - هل يوجد مرشد صحي في المدرسة؟- عرفي عمله-

٨ -هل يوجد مرشد تربوي؟

٩ -هل يوجد لجنة أهل ؟

١٠- ما هو عملها بالتحديد؟

١١ - هل من الممكن ان تكون البديل المناسب عن المرشد النفس-إجتماعي؟

١٢ - اذا اردت تقسيم الطلاب في المدرسة الى فئات او طبقات ، كيف تقسمينها، وعلى اي أساس؟

١٣ = برأيك، ما هو دور وزارة التربية في كل ذلك ، كيف هي العلاقة والتنسيق ما بين الوزارة وإدارة المدرسة؟

١٤ - برأيك ، كيف يجب أن تكون المعالجة؟

ب – الاجابات:

١-كلا.

٢ –/

٣ – منذ البداية، لم يكن يوما لدينا اي مرشد نفس= اجتماعي

٤ – الادارة، النظّار، الاساتذة، الكفوء لذلك.

٥ – الادارة.

٦ – كلا ، حسب توفر الوقت.

٧ – طبيبة تهتم بصحة الاطفال ، تقوم بالاسعافات الأولية وقد تأخذهم الى المستشفى اذا اقتضت الحاجة.

٨ – كلا ، هناك د نح مدرسية خاصة من الجمعية للاطفال المحتاجين.

٩ –نعم.

١٠ – مناقشة الأمور الاكاديمية والادارية .

١١ – كلا .

١٢ – طبقات: غنية، متوسطة ، فقيرة ثم هناك فئات من الطلاب عندها طاقات ومواهب خاصة تشجعها وتنميها.

١٣ – لا دور لها البتة، حتى التنسيق ضعيف وبعيد الى اقصى الحدود.

١٤ – نحن بحاجة ماسة الى المرشد النفس- اجتماعي أنا شخصيا اتابع هذا الموضوع وأطالب به في المدرسة والى ذلك الحين أرحب بأي شخصٍ مؤهل ولديه الكفاءة لمساعدتنا.

٢ – أسئلة مقابلة مع:

البديل عن المرشد النفس- اجتماعي في المدرسة «الابتدائية»

أ- الاسئلة:

-١ما هي وظيفتك الاساسية في المدرسة؟

٢ – كيف استطعت ان تكوني البديل عن المرشد النفس- اجتماعي؟(لماذا أنت بالتحديد)

٣ – هل تطوعت لذلك ، لماذا ؟ ام كان بناءا على تكليف او طلب؟ ممن؟

٤ – منذ متى وانتِ تقومين بهذا الدور؟

٥ – هل يتعارض عملك كبديل مع عملك الأصلي؟(ما هو دوام كل من المعلمين)

٦ – ما هي الحالات التي واجهتك حتى الآن؟

٧ – كيف تقومين بعملك هذا ؟ (الانطلاق من اين بهدف الوصول الى ماذا؟)

٨ – هل يقتصر عملك على العلاقة بينك وبين الطالب المعني، ام تتعداها إلى الاهل؟

٩ – ما مدى موافقة الأهل على وجودك وعملك مع اولادهم؟

١٠ – هل تقومين بزيارات منزلية؟ وهل تتعدّينها الى شيء آخر؟

١١ – الى اي مدى يكون تأثير الاهل على الطالب؟

١٢ – هل نجحت في ايجاد الحلول لكل المشكلات التي واجهتها؟

١٣ – اعرضي لنا حالة واجهتك(بشكل مختصر)-(الحالة ، العوارض- النتيجة)

١٤ – هل درست حالات لطلاب في مرحلة تعليمية أخرى؟ كيف تجدين الفرق؟

١٥ – هل تريدين الاستمرار بالقيام بهذا الدور ؟ لماذا؟

١٦ – ما رأيك بالارشاد النفس- اجتماعي واهمية المرشد النفس - اجتماعي في المدرسة؟

١٧ – هي مقترحاتك لتحسين العمل والوضع الحالي؟

ب – الاجابات:

١ – مدرسة رياضة بدنية.

٢. – بسبب تخصصي الجامعي، زيادة على ان استاذ الرياضة قريب من الطلاب.

٣ – تطوع شخصي في البداية، حتى دون علم الادارة وعند رؤية كثرة المشاكل أنا طلبت من الادارة ذلك.

٤ – منذ بداية هذا العام.

٥ – نعم ، لانه ما من متفرغ كلّي ، للقيام بمستلزمات العمل.

٦ – أغلبها حالات اسرة.

٧ – الانطلاق من التحدث مع الطفل بهدف ايجاد الحل لمشكلته ؛ ما من مشكلة لا حلٌ لها.

٨ – أحيانا ، لا بد من الأهل.

٩ – موافقون لأنهم يعتبرون تدخلي كمعلمة وليس كمرشد اي دون اجر.

١٠ – مرّة واحدة قمت بزيارة منزلية بسبب ضيق الوقت وعدم التفرغ .

١١ – هم غالبا سبب المشكلة.

١٢ – كلا، بسبب ضيق الوقت.

١٣ – شقيقان في سن٨–٩سنوات: العوارض: تأخر اكاديمي كبير ، اهمال ظاهر، وساخة او قذارة بارزة.

الحالة: طلاق الوالدين ، وجود خالة زوجة أب بالاضافة الى اختها المتزوجة ووجودها في نفس المنزل مع زوجها وابنتها.

ذهبت الى منزلهما، الأب يعي المشكلة تماما إلا انه يرفع اللوم عنه وأبدى الاهتمام لكن دون نتيجة ، فعملت مع الطالبين بطريقة«الترغيب والترهيب»

النتيجة: تحسن جزئي عند الأخ الاكبر دون الاخ الأصغر.

ولولا ضيق الوقت اعتقد انني كنت استمريت حتى النهاية.

١٤ - كلا- /

١٥ - أكيد، وأتمنى التفرغ لذلك، وقداخذت وعدا من الادارة بذلك بعد نيلي شهادة « الدبلوم».

١٦ - أهميته كأهمية الاستاذ في المدرسة ، لان الطالب لن يستفيد اكاديميا اذا كان يعاني من مشاكل نفس- اجتماعية.

١٧ - يتوجب وجود مرشد نفس -اجتماعي لان المشكلات في تزايد مستمر نتيجة التغير الدائم في مجتمعنا مما يؤثر على الاهل وبالتالي على الاطفال.

واذا كان ذلك هو حال المدارس في السنوات المباشرة التي تلت الحرب وكانت لاتزال تعرف بعدم الاستقرار، فماذا عن اوضاعها ما بين ١٩٩٥- ١٩٩٦ ؟

لقد أصرّ محمود على زيارة المدرسة الأهم في المدينة عدة مرات ؛ وعندما وفق بمديرتها حاولت ان تهّيء الاجابات على اسئلته ، واعلنت انها مشغولة ولا تتمكن من استقباله الا في حال اطلعّت على الاسئلة ، ورغم عدم وجود اسئلة جاهزة نهائية، محمود كان ينتظر الحوار والملاحظة لكي يضيف على دليل مقابلته اشياء واسئلة اخرى.

وكانت النتيجة "سبكة" مجهزة لاجابات متناقضة ولحالة فتاة

شفيت منها بفضل توجيه المديرة المسؤولة ، لكنها حالة لم يكن لها وجود اكتشفها محمود نظراً لتناقضها في الطرح وفي التفاصيل .

اما "سناء"[١] فجلست في تلك المدرسة الكبيرة ، ذات السمعة المتنامية مع الناظرة المسؤولة في غرفة صف تحولت بمكتبها فقط الى غرفة مكتب وكانت هذه الناظرة هي نفسها الموجهة .

وحاولت الموّجهة الجديدة في المدرسة الاكثر حداثة في ... اقناع "منى"[٢] بتشخيصها لحالة فتى قاصر ذهنياً ، débile، قالت عنه انه متخلف عقلياً ، بعد مرة واحدة من مقابلتها له وبدون اجراء اي اختبار او بدون لقاء مع اهله ...

انها حالات بسيطة lk عينة اكبر لا يتسع المكان لذكرها او لتفصيلها لكنها كلها تؤكد على نسبية وعي لضرورة وجود الموجّه ودوره وأهميته لكنها تتهرب من التطبيق خوفاً من الخزينة والموازنة او خوفاً من المكان او حتى خوفاً من الموّجه نفسه.

واذا كان هذا هو حال السنوات الماضية فإن الوضع لم يتغير في السنتين المنصرمتين، والتضارب حاصل ما بين المدرس والموّجه، إنه تضارب يحل محل التكامل الذي نادينا به في بداية الفصل .

---

١ ـ مقابلة اجريت في العام ١٩٩٦.

٢ ـ مقابلة اجريت في العام ١٩٩٦.

خلاصة الفصل :

مما لا شك فيه ان دور المدرسة يتنامى بسرعة اكثر من ذي قبل، فتطوير البرامج والاخذ بالنظريات التربوية الحديثة، ومشروع او مشاريع التعاطي الفردي مع التلاميذ يغلّب كفة المدرسة ويرّشحها للعب دور بارز في نمو وتطور شخصية التلميذ ومن ثمّ تسابقها مع الاسرة في سلسلة عمليات التأثير وبناء الشخصية ...

الا يجب ان يكون التوجيه هو المدخل، ؟اذا لم يكن، فإنّ غيابه لا بدّ وان يؤثر على الصفات المذكورة اعلاه .[١]

ان اهمية موضوع التوجيه تنبع من عدم تواجده وتعميمه رغم كل المحاولات الحثيثة لتحضير ومتابعة الولد لمرحلة المدرسة[٢] وللانفتاح على الجوّ المدرسي لا الانغلاق عليه .

---

١ ـ ضرورة اقناع الاهل بمثل هذا النوع من التوجيه.

٢ ـ اشدّد على المرحلتين الاولى والثانية.

بعض ميادين عمل المرشد او الموجه النفسي التربوي في المدرسة :

- الاشتراك في وضع نظام قبول الطلبة في المدرسة او الاسهام في تنفيذ النظام الموضوع على اسس تربوية .

- الاشتراك في توزيع الطلبة على الفصول عند قبولهم وتوزيعهم على الشعب المختلفة تبعاً لميولهم ولتوجهاتهم (علمي - ادبي مثلاً).

- الاشتراك في عملية التقويم التربوي وتوزيع العلاقات ودرس وضعية المتفوق كما المقصّر وكلها في اطار التلامذة ذوي الاحتياجات الخاصة .

- الاشتراك في توزيع الطلبة على اوجه النشاطات المنهجية وغير المنهجية بما يتفق وحاجاتهم النفسية .

- القيام بعمليات المسح السيكولوجي والسوسيولوجي للتلاميذ كي تتحدد أمامه المشكلات العامة والفردية .

- الوقوف على اسباب تغيب التلامذة وظروفه (علاقة مباشرة مع طبيب المدرسة).

- القيام بعمليات مسح تربوي لرصد التخلف الدراسي واسبابه .

- القيام بملاحظات ميدانية مستمرة تدّون لاحقاً او في وقتها اهمية فكر ة الإصغاء.

- مقابلة التلامذة الذين تواجههم مشكلات مختلفة بقصد مساعدتهم على حلّها وذلك تبعاً لمراحل عمرية مختلفة ، وتحويل المشاكل المستعصية او الخطرة إلى اخصائي لمعالجتها .

- متابعة سير الامور الاسرية ، والتقابل مع الاهل او زيارتهم .

- تنظيم اجتماعات مع مدرسي الفصول تحت اشراف المسؤول التربوي للتشاور في المشاكل وطرق علاجها.

- المساهمة المباشرة في نظام القصاص والتأنيب، في مسائل الترغيب والترهيب المتبعة في المدرسة .

- مساعدة الطلاب مهنياً وتقديم التوجيه اللازم لهم ولأولياء امورهم بهذا الصدد.

- تنظيم ندوات مع الاولياء لمزيد من التوعية والتعاون على حل المشاكل العالقة .

- الاشراف المباشر على كيفية تنظيم اوقات الفراغ وانشغال النشء بها .

- الاشراف والمشاركة في الدورات التدريبية للاساتذة والمعلمين.

الفصل الخامس

الصحة النفسية لدى الأطفال ومسؤولية الأهل اتجاه الإرشاد والتوجيه

ما هي الصحة النفسية؟

لا تقلّ الصحة النفسية اهمية عن الصحة البدنية، علماً بأنّ الاضطراب النفسي قد يكون سبباً لبعض الامراض الجسدية (كحالات القرح المعدية وارتفاع ضغط الدم وغيرها).

وان بحوث الصحة النفسية غدت في ايامنا المعاصرة ذات اهمية قصوى، ولا سيما مع متطلبات العمل اليومي وضغوطاته وتنافساته وحتى تنوعاته.

فالصحة النفسية هي حصيلة حيوية لعملية تكيف وتوازن (مع البيئة الاجتماعية- المحيط وما فيه من تجمعات وعلاقات: صداقات أو عداءات الخ...) هي في قدرة الفرد على التعود على حلّ على حلّ مشاكله دون عنف او عدائية او اضطرابات عنيفة.

وهي سلوك متكيف يهدف الى تماسك الشخصية ووحدتها وتكاملها بحيث يقبل الفرد ذاته ويعمل على تنميتها، ولا يكفي قبول

الفرد لذاته، بل يجب ان يقبل الآخرين ويتفاعل معهم بأقل قدر ممكن من التنافر وبأكبر قدر من التعاطف.

والصحة النفسية لا تتواجد عند الاطفال هكذا وفي المطلق، بل هي سلوك يجب ان يتعوّدوا عليه ولا يمكن ان يبدأ الا بالاهل، عبرهم وبمساعدتهم ومعاونتهم على تفسير سلوكهم.

تبدأ الصحة النفسية بالحياة المنزلية اي بالحياة الاسرية وبين افراد الاسرة ونعني اول ما نعني الام والاب. والاسرة هي جماعة يمكن ان تتعرض كباقي الجماعات الاخرى التي يتألف منها المجتمع، الى اضطرابات ومشاكل تستدعي هي بدورها المساعدة والارشاد، وقايةً وعلاجاً، ونشدّد هنا على اهمية دور الوقاية في الصحة النفسية والوقاية بحاجة لوعي متزايد للتمكن من تجاوز الصعوبات المسلكية!.

يقول Arixon ان الانسان يواجه مشكلة او عدة مشاكل اساسية في كل مرحلة من مراحل نمو حياته، لكن هذه المشكلة يجب مواجهتها ومن ثمّ حلها حتى يتيسر له مواجهة وحل مشكلاته اللاحقة.

كما يجب على من حوله مساعدته على المواجهة والحلّ مما يساهم في خلق جو صحة نفسية سليمة على صعيد: الفرد - الاهل والمجتمع.

من هذا المنطلق السوسيولوجي، ومن منطلق آني حالي، وكما قلنا لوطن ما بعد الحرب، فان العناية بالصحة النفسية تصبح امراً وطنياً واجتماعياً وانسانياً اضافة الى كونها عملاً اقتصادياً انتاجياً تنموياً.

ومن هذا المنطلق ايضاً، يصبح التوجيه الاجتماعي امراً اساسياً، لا بل احد الحلول الاساسية والمباشرة التي يمكن ان تقودنالما نسميه في علم النفس الصحة النفسية (استعمال تعبير «صحة نفسية» يعود للدلالة على قدرة الفرد على التكيف مع نفسه ومع البيئة التي يعيشها، وذلك مرتبط بتكوينه النفسي).

يدخل علم النفس هنا – على حد قول B. Andrey كي يلعب دوراً في الحياة المدرسية فيدخل وينصت للعالم المدرسي (Le monde scolaire) ويتساءل عن حياة المجموعات والتجمعات داخل هذا العالم!

ونحن نتساءل بدورنا، طالما نتحدث عن اهمية التوجيه الاجتماعي الذي اعتبرناه داخل العملية التربوية الشاملة، نتساءل عن ماهية تواجد علم النفس في المدرسة؟ وللاجابة عن هذا التساؤل لا بد من ايجاد العلاقة التي تجمع ما بين علم النفس وعلم التربية؟

لا يؤمن B. Andrey بوجود «علم تربية» مستقل الا لدى الحديث عَن تقنيات او مناهج؛ انه وعلى صعيد الواقع المعاش مرتبط وبالضرورة الفعلية بما يسمى علم النفس التربوي La psycholopédagogie لأن جوهره لا يُفتش عنه الا ضمن اطار علاقة، (اطار علائقي) علاقة مع الآخر؛ ويمكن ان يكون هذا الآخر: ولد، جماعة، استاذ الخ...

وعليها فان Andrey يعرّف علم التربية بأنه (لحظة): وضعية سيكولوجية يتنازعها متغيران:

١– طبيعة العلاقات العاطفية التي يقيمها الولد مع محيطه وواقعه التربوي.

٢- التغيرات الفيزيولوجية- الجسمانية التي تحدد نموه وتطوره.

وهنا تدخل المدرسة بشكل فعال في محيط الولد، لا بل تشكله (اي تشكّل هذا المحيط) وتكون مرتعاً له لا بدّ ان يتطور وينمو الولد بداخلها، لذا فإن وظيفة الاخصائي النفسي لا بدّ وان ترتبط بوظيفة الاخصائي التربوي والعكس بالعكس؛ وهو ارتباط طالما اهمل ومنذ زمن في بلادنا، واليوم وبفعل اعادة توزيع العمل- تنوع الحياة في المدينة وايضاً في القرية - تأثير وسائل الاعلام - تكثيف الحياة السياسية والاجتماعية [1]. لا بدّ ان يفرض التوجيه الاجتماعي اهميته علينا في ظل تشابك المسألة التربوية.

ان ما يقال عنه « علم النفس المدرسي» ما هو الا «علم النفس التربوي» الذي يجب ان يدخل بجديّة في برامج تكوين وتدريب المعلمين والقيمّين على المؤسسات التربوية. ونلفت النظر الى ان المشكلة لا تَقتصر هنا على مسألة التدريب بل هي تصل الى حدّ المعاناة في كيفية تعليم مواد علم النفس: فغياب الاهداف والغايات، وغياب الطرائق التعليمية تدعو إلى إعادة التفكير في نوعية ادخال جديدة لهذا العلم الاساسي في العملية التربوية، ولنتذكر دائماً ان اهم شروط توازن الفرد تكمن في شعوره بالتكامل والاندماج مع جماعته. مما يؤمن له الشعور بالامان الذي يحتاج اليه عكس الشعور بالعزلة والرفض وهو شعو مقلق وباعث على عدم الانتظام الاجتماعي .

---

١ ـ كلها امور تدخل في صلب علم نفس الشباب .sociologie de la jeunesse les jeunes

وهنا، نحن بحاجة مباشرة للموجّه الاجتماعي الذي عليه (او يُطلب منه) ان يتقاسم مع التلميذ همومه ونقول « اسراره»: il est censé) de partager Les "secrets"). عليه ان يتفهم اولاً، يشارك ثانياً ويساعد اخيراً.

نعرض سريعاً في هذا الفصل لأهم المشكلات الأسرية التي يمكن ان تطرأ :

- خلافات اسرية بين الوالدين.
- اضطرابات عصبية عند احدهما.
- تربية عنف او تحريض من الآباء للأبناء.
- الاضطرابات المادية داخل الاسرة.
- الخلافات الفكرية والاجتماعية.
- مشاكل الابن الوحيد للأسرة ولداً كان ام بنتاً.
- الابن البكر او الاكبر.
- الابناء «آخر العنقود».
- ابناء غير اشقاء عن طريق الاب او الام.
- وجود الابن الذكر بين الاخوات او العكس.
- تمييز البنت عن الصبي.
- مشكلات تدخّل الاقارب في الشؤون الاسرية.

-تهرّب احد الوالدين من تحمل مسؤولياته نحو ابنائه واسرته.

- مشاكل اعاقة لدى الابناء او لدى الأهل.

- مشاكل حول امور التربية الجنسية وكافة الامور التي تتعلق بنمو الولد الجسدي.

- مشاكل خاصة وناجمة عن وسائل الاعلام- التعلق بالبطل وكيفية اخراج الصورة اواعادة الصور التي يراها اعلامياً وعدم اهتمام الاهل بهذه المسألة او بالعكس اهتمام زائد بها.

- مقدرة وسائل الاعلام على الإغراء في السياسات الاستهلاكية داخل الاسر (شيبس- المياه الغازية الخ...).

لا بدّ ولاستقرار الحياة الاسرية وسعادتها من دوام الرعاية. وباعتبار ان الطفولة مرحلة اساسية وطويلة في تكوين الشخصية الانسانية للفرد ،ولما تتفاعل فيها من ظروف الحياة المنزلية ومشكلات الحياة الاسرية، فإن الطفولة قد لا تخلو من مشكلة او اخرى وما من شخصية سوية بالمطلق.

لذا فإننا سنضيف مشكلات الطفولة كالتالي:

١- مشكلات جسمية لها اثارها النفسية مثل

- تأخر النطق

- امراض جسمية عامة.

- مشاكل تتعلق بالنوم.

- اضطراب الغذاء والرضاع قبلاً

- متاعب الفطام

- اضطراب التخلص من الفضلات.

٢- مشكلات انفعالية وجدانية:

- نوبات غضب او بكاء

- كذب سرقة - عصيان .

- مظاهر غيرة.

- مظاهر خوف.

- ميول تخريبية.

* عدوان واعتداء نفسي وغيري.

٣- مشكلات تعليمية تربوية:

- ضعف التحصيل وحدود القدرة الذهنية

- تفوق الموهوبين وتقدير ذكائهم

- الطلاب المعوقين

- كثرة الغياب عن المدرسة

- صعوبات النطق

- عدم تنظيم لوقت الدراسة

- عدم التركيز

- الحركة الزائدة

- احساس الولد بالوحدة وبالتميز والاختلاف غير الايجابي في سلوك الاهل الاستهلاكي

٤- مشكلات اسرية

(الاطفال/الضحايا) نتيجة وضع الزوجين (طلاق - ترمّل - تدخل اسري - سفر- هجرة- هجران - عدم تفاهم الخ...)

وكلها برأينا مشاكل تنبع من كيفية تكوّن الشخصية التي هي نتيجة واقع معين، ومع التطور العلمي برزت حركة التوجيه والارشاد في المدارس وايضاً في المصانع والمعسكرات وبدأت الجامعات تدخل الى برامجها مواد التوجيه والارشاد بكافة ميادينه حيث اصبح الارشاد. مجموع الخدمات التي تهدف الى مساعدة الفرد، مشاكله واستغلال امكاناته الذاتية من قدرات ومهارات واستعدادات كما تساعده على تحديد أهدافٍ تتفق وامكاناته هذه.

ويرى البعض تداخلاً ما بين الارشاد النفسي والعلاج النفسي مما لا شك فيه ان الاثنين هما درجة من درجات العلاج النفسي والصحة النفسية، وقد جهدا في سبيل تعديل السلوك وتقويمه. يبقى التأكد أن الارشاد النفسي او الاجتماعي او التربوي، يصب في خانة النفسي او النفس- اجتماعي، فالتربوي لا بدّ وان يعتمد على النظريات النفسية في تحليله، ومن مناهجه اساساً كونه يبحث الامور البسيطة والمعرفية والانفعالية.

اما العلاج النفسي، فهو يبحث في عمق اللاوعي مما يستدعي ويستغرق عدة جلسات، ويمكن ان يكون المرشد هو المرحلة الاولى التي تنهي العلاج، وقد لا تنهيه حسب عمق المشكلة، ولا يخفى على احد خوف بلادنا – رغم المظاهر الشكلية ـ من الطبيب النفسي الذي اصبح كطبيب الاسنان في الخارج.

ربما نتساءل متى تبدأ عملية التوجيه؟

لا يمكننا التحديد ولا يوجد نظام مرن للاختبارات او التوجيه، لكن النظرة العلمية والموضوعية تؤكد ان هذه العملية يجب ان تتم منذ الصغر وان ترافق كافة المراحل على ان تشتد ساعة الحاجة إليها.

ويرى البعض ان الطفل قابل للإصلاح والتوجيه والبعض الآخر يقول بأهمية ظروف تكوينه التي تطغى على واقعه النفس– اجتماعي.

كنتيجة، فإنه رغم اهمية التوجه الثاني، إلا أن الاهتمام ينصبّ حالياً على اهمية تعديل السلوك الانساني. وهو موقف مسؤول يناط بالمدرسة للإشارة الى نظريات التعليم، وهو نوع من انواع التأثير (كما يحدث حالياً في الاعلانات ونظريات تربية الاطفال والحملات الانتخابية والتفاعلات الاجتماعية) على السلوك بهدف تحسين الضبط الذاتي وتطويره من خلال تحسين مهارات الفرد وقدراته ومستوى استقلاليته. وهو بحث مخبري تجريبي يتطور سريعاً في علم النفس.

ما هي اذاً مسؤولية الاهل؟

طبعاً هي مسؤولية غير منفصلة عن مسؤولية المدرسة، وإذا لم تجهّز المدرسة– كما في كثير من الاحوال في مدارس متنوعة– للتوجيه والارشاد فما من جدوى لتعاون ما.

ونعتقد ان هذا الدور لا يكفي تنفيذه بوضع اخصائي متفرغ في المدرسة بل إيضاح بتدريب المعلمين والمعلمات في إطار عملية تربوية شاملة، تعمل على إعادة الوصل مع الأهل والرفاق.

دور الاهل الفعلي هو المضي في تحسين اداء التوجيه والارشاد بالانفتاح على المدرسة واطلاع المسؤولين بتنوع مراكزهم وخاصة المسؤول او المرشد على وضعية الابناء وعلى التغيرات الطارئة لديهم على جميع المستويات = تطور نموهم – تطور انفعالاتهم– حاجاتهم– واقعهم السيكولوجي– مشاكلهم التربوية –... علاقتهم مع الاخوة والاهل – نظامهم–عدوانيتهم إلخ... وحتى الوصول الى مرحلة المراهقة وهي مرحلة اخرى لا نتوقف عندها فهي بحاجة لنظمٍ وتطورات ربما كانت أكثر دقة!.

الاطلالة على هذه الامور مجتمعة او متفرقة، وبالتعاون مع المدرسين والمسؤولين في المدرسة تساهم بنشر صحة نفسية وتربوية لدى الاطفال، لا يمكن ان تبدأ الا باحترامهم كأفراد واحترام جسدهم ونموهم الجسدي، وطبعاً بالتشارك سوية امهات وآباء!

من هنا التركيز على اهمية الانفتاح والصراحة بين الاهل والاولاد من جهة وبين المدرسة (الناظر والمدرس والمدير) من جهة اخرى، مع

التركيز على اهمية التحاور والتفاعل الايجابي بين هذه الجهات. لقد أصبح الارشاد والتوجيه اهمية مطلقة تنبع من تحديات العصر كترشيد الاستهلاك التي يجب أن تدخل في اطار ثقافة وطنية شاملة.

لا يختصّ الإرشاد بالصحة والمشاكل الاجتماعية والتربوية فقط بل يمكن ان يختص بالأمور الاقتصادية وفكرة الاقتصاد المنزلي ودور المرأة فكرة حديثة لم تظهر من خلال الواقع التقليدي لها ("ست البيت المدبرة" بالمعنى التقليدي)، بل من خلال السلوك الاستهلاكي المتزايد وهو سلوك بحاجة لترشيد في حسن استخدام الموارد المتاحة امام الاسرة. وللمرأة دور مهم في ترشيد استهلاك طفلها اليومي من اكل وشرب: كمراقبة النوعية – التاريخ والانتاج والتوجه لغذاء صحّي سليم وامتلاك الثقافة الاستهلاكية هو حق للطف وحق للأم، لكنه حق محفوف امام السياسات الاعلامية الاغراءاتية اذا صحّ التعبير، وهو سلوك واقتصاد منزلي غير نسوي محض، بل هو ارشادي اسري يطلب بإلحاح تواجد الرجل للتوازن وإعادة ولإعادة توزيع الادوار كي يعيشه اطفالنا، فهو المدخل لصحة نفسية سليمة!

وتواجد الرجل للتوازن ليس ضرورة استهلاكية، بل ضرورة حياتية اسرية ملحة اليوم ربما اكثر من اي وقت مضى.

خاتمة

إن التعرض للتقنيات في علم النفس الاجتماعي لا بدّ ان يتم على صعيدين:

الصعيد الأول، وهو نظري يجمع الخطوات، خطوات كل تقنية واطارها العام وايضاً مصطلحاتها الخاصة، وكلها تخدم فكرة رصد الفرد مع محيطه وكيفية هذا الرصد .

الصعيد الثاني، وهو تطبيقي يدرس امكانية وضع التقنية قيد التنفيذ بشروطها وتحويلها الى وسيلة هادفة تخدم فكرة البحث الاساسية وخصائصها.

ويتم العمل على الصعيدين النظري والتطبيقي بمواكبة فكرة اساسية يجب ان تسيطر على كافة مراحل البحث ومراحل تطبيق التقنية، ألا وهي فكرة الموضوعية التي لا بدّ ان تطرح بدورها سرعة بديهة الباحث ووجوب تأقلمه السريع مع المواقف المستجدة، والابتعاد عن المباشرة والذاتية والانحياز والتأثر سلباً او ايجاباً بأقوال الجماعة المبحوثة.

اما التعرض لميدان الارشاد والتوجيه وهو ميدان اساسي وآني في علم النفس الاجتماعي؛ فلا بد ان يطال القيم وكل ما هو مجتمعي تؤدي معرفته ومواجهته الى توازن نفسي للشخصية، خاصة وان الارشاد هو فعل تزويد الفرد بمجموعة المعلومات الصحية والعلمية، والابتعاد عن الطرق الملتوية مع تحريك حسّه (اي حسّ الفرد) بالمسؤولية اتجاه كافة المواقف التي تنبع او تصدر منه، كي يصل لاحقاً

الى اتخاذ القرار المسؤول وكلها تمر عبر عملية تربوية تشير إلى مبدأي التعليم والاكتساب.

ولا يتم ذلك بدون الاستماع لمن يود الارشاد، وهي وضعية شبيهة بوضعية التحليل النفسي والتداعيات الحرة للمريض، فالاستماع الهادف هو الاستماع الموضوعي المراد به الذهاب الى ما وراء الظلمات إذ عليه، اي على المرشد، دراسة الحالة النفسية للتمليذ.

ويشير Trade بهذا لصدد إلى عن ضرورة وقوف علم الإرشاد الاجتماعي على القوانين السيكولوجية الاجتماعية؛ فوظيفة الإرشاد هي انشاء نماذج جديدة في القول والعمل والاقتداء والتفكير، وهنا تكمن اهمية الموجه النفس- اجتماعي لأنه سيصبح مرشد الابداع والتسامي.

لا يمكننا احصاء خدمات الإرشاد والترشيد، أو تمرين طاقاتنا عليه قبل ايجاد مكتب رعاية نفسية، او دائرة نفسية- اجتماعية كما هو الحال في بلدان أخرى نذكر منها مصر وبلدان الخليج، وتتأكد وضعية الخبير او الموجه تماماً كما تتأكد وضعية المرشد الصحي. وبغياب سياسة هادفة، يصب الكل في الاتجاه نفسه رغم الاختلافات الجزئية. ولدى تواجد المزيد من التخصص تتضح اكثر المشاكل وتظهر كيفية ادائها ومعالجتها بشكل صحيح.

تبقى الدلالات الرقمية دلالات مجتمعية مهمة تعين المرشد او الموجه في عمليات التشخيص والمعالجة، ولكن لا تغنيه عن المنحى العيادي ومنحى السير الذاتية.

لائحة المراجع:

١ - باللغة العربية

- البير، مصطفى، مقدمة في مبادىء واسس البحث الاجتماعي- معهد الانماء العربي- بيروت ١٩٨٤.

- د. انزيو: الجماعة واللاوعي ترجمة سعاد حرب- مجد بيروت ١٩٩٠.

- حسن، محمود، الخدمات الاجتماعية المقارنة- دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٢.

-زيادة خالد، يوم الجمعة، يوم الاحد- دار النهار- بيروت ١٩٩٤.

حارات الأهل، جارات اللهودار النهار- بيروت ١٩٩٥.

- الشحيمي ، محمد ايوب : - مشاكل الاطفال- دار الفكر اللبناني- بيروت ١٩٩٤.

- دور علم النفس في الحيالة المدرسية - بيروت، دار الفكر اللبناني- ١٩٩٤.

- عيسوي ع: دراسات في علم النفس الاجتماعي - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٤.

- عوض ع: في علم النفس الاجتماعي- دار النهضة العربية- بيروت ١٩٨٠.

- لطفي، احمد: التوجيه التربوي والارشاد النفسي- القاهرة- ١٩٨٦.

- مكاريوس صموئيل، مشكلات الصحة النفسية في الدول النامية- دار الفكر- بيروت ١٩٨٨.

هورغ- ج: الجماعة، السلطة والاتصال- ترجمة نظير جاهل- مجد- ١٩٩١.

الدوريات ودراسات غير منشورة والمعاجم.

- باحثات - العدد الأول- العدد الثاني، ١٩٩٤-١٩٩٥.

- الثقافة النفسية: نحو علم نفس عربي - عدد ٩- ١٩٩٢- عدد ٢٠ (١٩٩٤) دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٢.

-اخبار علم النفس- الجمعية المصرية للدراسات النفسية- اخبار علم النفس - عدد ٢٨- فبراير ١٩٩٥.

- السفير - الخميس ١٩٩٦/٤/٤.

- الفكر العربي- عدد ٦- ١٩٨٣.

- الكافي - معجم عربي حديث- شركة المطبوعات للتوزيع والنشر- بيروت ١٩٩٢.

- وقائع مؤتمر: المعلم العربي في القرن الحادي والعشرين- عمان - ١٩٩٥.

- اغاريد النونو- التوجيه النفس- اجتماعي في بعض المدارس الثانوية في بيروت- دراسة اعدت لنيل شهادة الجدارة - معهد العلوم الاجتماعية- الجامعة اللبنانية- بيروت ١٩٨٩-١٩٩٠.